الطاهر لكنيزى

الـهـتـمـاء

رواية

الطبعة الأولى ديسمبر 2020

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب	الاهتماء
المؤلف	الطاهر لكنيزى
التصنيف	رواية
رقم الإيداع	2020 - 2153
الترقيم الدولى	978-977-6835-67-2
رقم الإصدار	668 الطبعة الأولى 2020
عدد الصفحات	82 صفحة
الإخراج الفنى	مؤسسة النيل والفرات

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رخصة مزاولة مهنة:58365 - سجل تجاري: - 13242 / 2017 - بطاقة ضريبية: 35-01-572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 - 01116202218 - 01202541192 تليفاكس:0205543729O1
nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات
alnilwaalfourat alnilwaalfourat@gmail.com
المقر الرئيسى: ج.م.ع محافظة الشرقية - العاشر من رمضان - مجاورة 13 - أمام سنتر الـ13 - مقابل 304

لجنة التحكيم

د محمد فتحى محمد فوزى

كاظم العطشان — سليمة القزيرى

عبد المجيد بطالى — رضا أبو الغيط

د.حمدى عيسى الطيرة — إيهاب همام

مسابقة فارس الإبداع العربى

الدورة 1

مسابقة سنوية برعاية مؤسسة النيل والفرات وجريدة صدى المستقبل

رئيس مجلس إدارة مؤسسة النيل والفرات
ناجى عبد المنعم

رئيس مجلس إدارة منظمة صدى المستقبل
د.إبراهيم عبد الحميد

المشرف العام
أشرف بدير

المدير العام
د.أمانى إبراهيم

المدير الفنى
سميرة محمودى

رئيس لجنة التحكيم
عبد العزيز بندق

المثالية الجامحة

بقلم
شيخ المثقفين العرب
د. إبراهيم عبد الحميد
رئيس منظمة صدى المستقبل

الكتابة هى المثالية الجامحة التى ولدت من رحم المعاناة الذاتية للمبدع تحوى القيم التى تدور جذورها فى فلك عقله وهى وريثته الشرعية لكينونته الآدمية .. تجمع تأثيرات الحياة الإنسانية وترصد عقلانية نظرته لظواهر الحياة المتنوعة ...فالمبدع الحقيقى يغوص فى أعماق ذاته باحثاًعن إجابة على أسئلة لم تطرح يفهم نشوء وجوده وارهاصات الحياة الاولى وغير ذلك تصبح الكتابة مجرد حفنه كلمات لثرثرة فارغة .

المبدع لا ينتمى

بقلم
الشاعر الناقد
ناجى عبد المنعم
رئيس مؤسسة النيل والفرات

(المبدع لا ينتمى .. وإنما يُنْتمى إليه) انطلقت مسابقة فارس الإبداع العربى من هذه القاعدة لتقدم مبدعا محررا من القيود التقليدية التى تعرقل إبداعاته فنجحت واحتلت المركز الأول عربيا والرابع عشر عالميا لتقدم مبدعا لا إبداعا يستطيع أن يرسم خارطة وطنه بفكر حر دون أية ضغوط تعوقه ، أو رقابة تنال منه ليحقق لقبا خالصا يستحقه عن جدارة هو فارس الإبداع العربى فى نسخته الأولى 2020 مليون مبارك للفائزين

فوز مستحق لمبدع كبير

بقلم الأديب المستشار

أشـرف بـديـر

المشرف العام وأمين عام المهرجانات

لم تكن مسابقة فارس الإبداع العربي التي أقامتها مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع بمصر ومنظمة صدى المستقبل الإعلامية الليبية ، لم تكن مجرد مسابقة أدبية عادية، بل كانت مسابقة أدبية عربية دولية، تنافس فيها أطياف من المبدعين العرب، كل في مجال إبداعه، لذا دنت أعداد المشاركين من الألفي مشارك، وانطبقت معايير المسابقة وشروطها على ما يقرب من سبعمائة مبدع، ثم أفرزت لجان التحكيم من فاز بالمراكز الأولى حتى الثالثة بما يقرب من الخمسين مبدعا في كافة مجالات المسابقة، فضلا عن كونهم من القامات الأدبية العربية السامقة، ذلك ما أهل المسابقة لأن تكون الأولى عربيا وضمن العشر مسابقات دولية في مجال الأدب العربي..لذا ، عندما يفوز أي عمل في تلك المسابقة فإن هذا يؤكد جدارته، حيث مر بعدة مراحل من مراحل المسابقة، فقد مر على لجان المراجعة، ثم على لجان التحكيم، ثم على اللجنة العليا للمسابقة.. من هنا كان هذا العمل الذي بين أيدينا (الفائز بلقب فارس الإبداع العربى) مثارا للفخر للقائمين على المسابقة قبل أن يكون كذلك بالنسبة لمؤلفه، فهنيئا لكم إخوتنا وأخواتنا أساتذتنا المبدعين لهذا الفوز المستحق، ومزيدا من النجاح والتقدم..

الهتماء

الطاهر لكنيزى

نظرتَ إلى ساعتك فأخذ بعض التلّاميذ يُدخِلون أدواتهم في محفظاتهم. أمام باب حجرة الدرس، وقفتَ تتطلّع إلى السماء: الجو مكفهرّ، يزيد نفسَك المُعكّرة بَلْبلةً. سُحبٌ دكناء متلبّدةٌ كالعِهن تنفُشها الرّياح الغربية بمَحالجها، وتغْزلها شمسُ العَشِيّ خيوطا نُحاسية تنهال على الأرض. بعد انصراف التلاميذ، قرّرت المبيت في السكن الوظيفي.

توالتْ زخّاتٌ من المطر تُرْقِصها عاصفة غربية، فأصبحت السّماء والأرض ماءً. هجمت جحافل الظّلام سريعا فغَشيت المنازلَ المحيطة بالمدرسة.

دخلت إلى الغرفة وأوصدتَ بابها بالمفتاح. الرعدُ يفجّر قهقهات هسْتيرية كقنابل عنقودية، يزلزل هزيمُه الغرفةَ، حتّى كأنّ جدرانها ستنهار. تمنّيتَ لو كانت معك آلتك، لأضفتَ إلى هذه الأوركسترا نَبرات عودك كي تؤلّف مع عناصر الطبيعة سمفونيةَ لوداع الخريف. تمدّدت فوق السرير، وأخذت تتقلّب كمن ينام على صفيح ساخن، حتّى أنهك التعب فنمت.

في الهزيع الأخير من الليل، استيقظتَ على صرير باب المسكن كأنّ أحدا يفتحه، ووقع خطوات، ثمّ طرْقاً خفيفاً على باب غرفتك.

سألتَ مَنْ، وخرجتَ تقصد باب المنزل. شعرتَ بيَدٍ تشدّ على ياقَة قميصك من الخلف، وأخرى تقفل فمك، وصوتَ أنثى تهمس بك أن لا تنطق. دفعَتْكَ إلى الدّاخل وأقفلت الباب، فضجّت الغرفة برائحة عطر رخيص.

ترَكْتها وَخرجْتَ لتتأكّد من عدم وجود أحدٍ ما. طُفتَ حول المسكن. الظّلام دامس، والمطر يصفعك كملاكم يسدّد الضربات من كلّ الجهات. عدت وجلسْتَ على أريكة قُبالَتها، فنضتْ عنها اللّحاف و بدتْ مشتعلةً فتْنةً، في قميص أُرْجوانيّ شفافٍ. كنتَ ترتعش من قرّ السماء وقرّ اللّقاء. أشحْتَ عنها بوجهك، فجذبتكَ من كتفك لكي تنظر إليها وتسمعها. قالتْ بدون مقدّمة، وهي تضحك كأن الأمر لا يستحقّ كل ذلك الحذر والخوف من الفضيحة:

- أستاذ، لقد أحببتك بحقّ، وأرجو أن تتزوجني.
أنا يتيمة الأب، وأمّي سيئة الأخلاق، وشرسة. لقد نفرتْ نفسي من العيش في هذه البيئة. أعدك أنني سوف أكون طوع يدك. أُحْسِنُ الطّبخَ وتنظيفَ الأواني والطّرز وغسل الثّياب. أرجوك أن تنتشلني من هذه البرْكة الآسنة.

جذمتَ حلمها قائلا:

- أنا الآن، يا ابنتي، لا أفكر في الزواج. أرجوك
أن تنسحبي قبل أن نُضبط. ستصلك مني رسالة..

وقفتْ، فظننتَ أنّ كلمة" ابنتي" كانت جوابا حاسماً، حيث لَمّحتَ إلى فارق السّنّ بينكما. رافقتها حتى الباب، وعلى بعد خطوات منك، ذابتْ وسط الظّلام الحالك والمطرُ لمّا ينقطع.

ذات صباح، وأنت تقف باب حجرة الدرس، تساءلت إن كانتْ تلك عادتها مع كلّ من مرّوا قبلك، أمْ أنّك أنتَ أوّل رقم في لائحة طيْشها. رأيتَ فتاة تقترب منك وهي تبتسم؛ إنّها هي. طلبتْ منك أن تساعدها على إنجاز تمارين في الرّياضيات، وآخر في التّعبير الكتابي باللّغة الفرنسية. كتبتَ لها على عجالة نصّاً، وطلبتَ منها أن تنتبه إليك وأنت تحلّ المسائل. كنتَ تذكّرها ببعض القواعد، لكنّك لاحظتَ أنّها كانت تتفرّس في ملامحك، وتتفحّصُ ملابسك قطعة، قطعة، أكثر مما تتابع شرحك.

أعدتَ لها دفترها وأفهمْتها أنّ زيارتها المتكرّرة لك، ستُثير الشّبهات. ضحكتْ ثمّ ذهبتْ وهي تمْشي بتَغنّج، وتلتفت لترى إن كنت تراقبها. قال لك زميلك:

- إنّها رقيّة ابنة المرحوم العربي الذي توفّي في حادثة سير مروعة . أمّها الزّاهية، أجمل نساء القبيلة. تحبّ الملابس الفاخرة، والحليّ، والعيش في بذخ. تزّوجتْ عُرفيا بعون السلطة حُمّانَ رغم فارق السنِّ لتشكم أفواه الناس؛ واتخذها هو خليلةً لأنه يظنّ أن لا أحد يستحقّ ذلكَ الجمالَ غيره.

ضبطتْها ابنتُها أوّل مرةّ وهي في أحضان حمّان، وظنّت أنّه يريد اغتصابها، فصرختْ بأعلى صوتها لتستنجد بالجيران. تناولت الزّاهية حذاء خَليلها وقذفته في وجهها، فتكسّرتْ إحدى قواطعها. لا ينادونها إلا بالهتماء. لو كنتُ شابّا لتزوّجتُها.

- فلتتزوّج، أنتَ الأم، وأنا البنت.

ردّ بضحكة كهَرير محرّك مهترئ في فصل الشتاء:"لم يعُد في النّصلِ ما يَقوى على بَصَلٍ."

عادت ذات يوم نهاراً؛ طرقتْ باب القاعة وهو مفتوح، ثم اختفتْ بجانب الجدار. عندما خرجتَ، مَدّت إليك بعضَ الوُريقات البيضاء. سألتك هامسة وهي تبتسم:

- هل ضاعت رسالتك في الطريق يا أستاذ، أم
أنّ اللّغة لا تطاوعك في التعبير عما تريد أن تقوله لي بصدق؟ أُكتبْ بأيّة لغة تسعفك. هي ليست إلا كلمة واحدة: نعم، أوْ لا، وأَرِحْني.

أرجعْتَ إليها وُريقاتها بيضاء، فأجهشتْ بالبُكاء. حلحلتْ دواخلك فعانقْتها؛ تركتْ رأسها في حضنك، وضمّتك بقوّةٍ فخجلتَ. لمعتْ في ذاكرتك لقطةٌ من المشهد القاتل لصَفيّة وضُحى والّذي خلخل فيك كلّ ما ارتكنتَ إليه من أخلاق. بدأتَ تتحسّس جيوبك، فقالت، وقد انشرحتْ أساريرُها رغم دموعها:

- لا، لا، أعتذر، أنا لست في حاجة إلى النقود؛
رغم معاملتها السيئة لي، فالزّاهية كريمة معي. أريد فقط أن أنْعتقَ من هذه الحفرة بأية وسيلة.

لأوّل مرّة حدّقتَ إليها، فرأيتَ هولَ الهمّ المتكلّس في فؤادها الجريح، والذي تعكسه مرايا عينيها، وتُجلّله أحيانا ضحكتُها المجلجلة، كاشفة عن ثَنيّتيْن من فوق مكسورتين. قالت:" أنا يتيمة فاكْفلني." رددتَ بصوت أنثوي رقيق:" يا ابنتي، هل يعقل أن يكفلَ طفلةً في سنّك رجلٌ عازب ؟"

أطلقت ضحكة بريئة وانصرفت. كانت تسيرُ وهي تلتفتُ خلفها لترى إن كنتَ تتأمّل قامَتها.

قرّرتَ أن تهدّدها لو عادت مرّة أخرى وفي نفسها نفسُ الحاجَة. إنّ تعاطفك معها سيزيدها تشبثاً بك. كَثيراتٌ هنّ ممن تشفق عليهن وتعملُ بجدّ وحُسن نيّةٍ لمساعدتهن على إيجاد حُلول لمشاكلهن، بيْد أنّ بعضهنّ يعتبرن ذلك ميْلا وهوى. إنّهنّ معذورات، لأنّهنّ ترعرعنَ في وسطٍ لا شيء فيه يُمنحُ مجّاناً؛ كما أنّه ما كلّ خدمة إنسانِيّةٍ يقدّمها رجل لامرأةٍ ما، يكون من ورائها دائما قصدٌ شريف.

وأنت تدخل السكن الوظيفي ذات صباح، لمحتَ ظرفاً دون طابع بريدي. قلّبته على الوجهين؛ كان خاليا من الكتابة. فتحته، وأخذتَ الرسالة، فقرأتَ:

" أستاذي العزيز، أكتب إليك بعدما لم تصلني منك الرسالة الموعودة. لم أعد أطيق البقاء في هذا البقعة المتعفّنة. أحلم بالعيش في مدينة، وفي منزل مؤثّثٍ بأفخر الأمتعة، ومُجهّزٍ بأحدث الآلات، مع رجل متعلّم، منفتح؛ نتحاور في انسجام. ألا يستحقّ هذا الجمال أن يرتدي أزهى الملابس، ويُحلّى بأغلى الحلل، ويتعطر بالعطور الرّاقية؟ لا أريد لهاتين اليدين الناعمتين أن يتشقّقا بالأشغال الفلاحية، وتتكسّر هذه الأنامل الرقيقة وتتّسخ. أنا أعرف سُكناك في المدينة، وأعرف أنّك وحيد مثلي، أفلا تجْعلني خادمة؟"

تبسّمتَ وقلتَ : حفيدة مادام بوفاري.

غابتْ رقيّة طويلا، فطبّقت قولة:" سكتوا فسكتنا." لم تعد تتذكرها إلا كفاصلة في جملة انشغالاتك المستفيضة.

قبل انصداع الفجر، سمعتَ طرْقا خفيفا، وامْرأة تَلحّ في فتح الباب بِصَوْتٍ خَفيضٍ، كأنّها مُطارَدة. فتحتَ الباب، فدلفتْ دون استئذانَ كَربّة بيْتٍ تعود إلى مَنْزلها وهي تحمل حقيبة. نضتْ عنها الجلبابَ؛ إنّها رقيّة. بدتْ لك امرأة بكامل أنوثتها. لفتتْ نظرها المكتبة، فهالها عدد الكتب، فسألتك إن كنتَ قرأت كلّ ذلك. فطنتَ لذكائها وطريقتها السلِسة لاستدراجك إلى الحديث، فأجبتها وأنت عابس ولا تدري كيف تتصرّف:" لا، اِشتريتها للزينة فقط، كالأواني الخزفية."

لم تعرف كيف تتصرف في مثل تلك الوضعية الطّارئة، والمباغِتة. مع صفيّة، كنتَ ما تزال شبه قاصر، وَأدّيْتَ من جلدك، أمّا الآن فأنت راشِدٌ، وبين نارين: الزّواج أو السّجن.

نظرتْ إليكَ بعينين يملؤهما الحزن وقالت:

- أعرف أنّني أحرجتك، فاعذرني. لقد سلكتُ السّبيلَ الذي حذّرتني منه، بل دُفعتُ دفْعاً لأسير فيه.

شعرتَ بإشفاق عليها، لكنّك كُنت تخشى عنصر المُفاجأة. قديما، لم تَبُح ضُحى بشيء لقاسم عندما زلزل المشهدُ كيانَ روحها البريئة. أمّا الآن، فسيرْجمكُما الناس في الشّارع عندما يُخرجك رجال الشرطة، أنت ورقيّة مُصفّدين. شعّتْ في ذهنكَ فكرةٌ، بل كذبةٌ أنارتْ أنفاقَ المتاهة الحالكة، فوقفتَ وقلت:

- أعتذر. إنني في رخصة مرض..
- لا أراك الله سوءًا وجنّبك كلّ وجع وأسى. وما بك؟

- نوع من الكآبة. سأذهب لمدّة أسبوع عند صديق لي في مرّاكش، حتّى تتعافى روحي.

قبل أن تترُكها تخرج، دسَسْتَ ورقة مالية في يدها وبَصرُكَ خَفيضٌ. عانقتك قائلة:" خذ رقمَ هاتفي. قد تحتاجني." لم تفعلْ، كما لم تُحدّقْ في عينيْها خشية نظرةٍ قد تصْعق القلبَ حدّ الانْبطاح.

ألقيْتَ نظرةً أخيرة على نوافذ منازل جيرانك، ثمّ أقْفلتَ البابَ بشعور سارقٍ لمْ يترك أثرا لِجَريمته، وما كنتَ من السّارقين.

ذاتَ مساءٍ وأنت تعود من العمل، وجدتها تنظرك. سبقتْك في الدّخول، ووضعتْ في المطبخ قُفّة مليئة بالمُشتريات. توسّلتَ إليها أن تتركَكَ وحالك.

ردّت بحزن:

- وماذا تعْرف أنت عن ظروفي، وحالِ نفسيَتي؟
كلّما غصتُ في مستنقع الرذيلة، ازدْتُ اختناقا، وخوفا من أن أضبط يوما، فيجزّ بي في السجن. أهرب منّي إليك كلّما هزّني الحنينُ علّني أجد في حضنك هواء نقيّا، وأتنفّس ملْء رئتيّ اللّتين كاد أن يتْلفهما الدّخان والكحول.

البارحة رأيت في منامي فتاة كأنّها ملاك، في مشيةٍ ما بين السيْر والطّيَران؛ تحمل فوق رأسها طبقا فيه شهدٌ، يُحلّق فوقه سرْب من الزّنابير. مرّتْ بكَ وهي تسيرُ نحو بئر مهجورة أُلقِيَتْ في غياباتها أُمُّها. كانت تتبعها فراشاتٌ بكل ألوان قوس قزح، فلمّا حاذتك التفتتْ إليكَ فلم تكلّمها. حطّت الفراشاتُ على عودك ودغدغتْ أوتاره؛ لكن لمّا غيّرتَ المَقام، طارتْ محلّقة فوق رأسكَ على هيأة هالةٍ

لازَوَرْديّة. سالَ بين الروابي لحنٌ رخيم ما زال صداه يتردّد بسمعي:" أنا نهرٌ، وأنتِ رافدٌ يغذّيني فاذْكريني كلّما خبّأتِ الشمسُ وجهَها في حِضْن البَحرِ كَطِفْلَةٍ، وأطْفأتْ غُلّتها في قرارةِ صدرهِ. اُذْكُريني، فَفي الذِكْرى حنين، وفي الحَنين حبّ، وَفي الحبّ شيءٌ ما خَبِرْناه.."

نسيتَ هواجسكَ بعدما أحسستَ بأنْسٍ معها، وقلتَ وأنتَ تبتسم:

- هذا الحلم لا يستطيع تأويله إلا الشّيخان:
محمد ابن سيرين، وسيغْموند فرويد.

- أعرف الثّاني، ولا أعرف الأول. هل تعلمُ ما وَقَع للشيخ؟

- أيُّهما؟

- لا، أردتُ أن أقول عون السّلطة، حمّان.
نَحْنَحْتَ، فسألتك إن كُنتَ تريد أن تشرب. كنتَ تنتظرُ منها أن تسْتأذنَكَ في الانْصِراف، بعدما عسعس اللّيل، فإذا بها تترجّى أن تسمح بالمَبيت، وتشرب أيضا.

توجّهتْ نحو المطبخ وقالت:

- لا تشغل بالك؛ سأجد بنفسي كلّ شيءٍ أحتاج إليه.
تمدّدتَ فوق الأريكة، تتأمّل مصير تلك الفتاة، وتتساءَلُ لماذا تلوذ بك أنتَ دون غيرك. قلتَ في نفسك لعلّها مثل العنكبوت (الأرملة السّوداء)، تنشر شباكها هنا وهناك. لكنّك كنت على شبه يقين أن مثل هذه اليمامة المشرّدة لن تؤدي من آواها.

تذكرت القصيدة التي أتاكَ عفْوياً بيتٌ آخر في موضوعها، وتساءلتَ إن كان يجب أن تتركها تختمر صورة، صورة، واستعارة تلو أخرى حتّى تكتمل، أم أنّك ستقوم بما قام به إدْغار ألان بّو، في قصيدة الغراب؟

أخرجتك من تفكيرك حين قالتْ:"العشاءُ جاهز."

أشعلتَ التلفاز فأشاحت عنه بوجهها. سألتها إن كانت على علم بما يجري من قلاقل وحروب في العالم العربي ومعاناة شعوبه. تركت اللّقمة في يدها وقالت مستفهمة مستنكرة:

- وهل يعلم أحد من العالم العربي أو الغربي أو حتّى الجيران، ضراوة الحرب الضَّروس التي أخوضها كلّ يوم لأعيش في الكفاف والعفاف بقيّة عمري؟ أتعرف ما معنى وجود امرأة وحيدة؟ ليست الوحدة بمعنى العزلة التي تختارها أنت. إنّها الغربة في وطني، وبين أهلي وأقاربي. أليس الوطن أنا وأنت؟ فهل وطن من يشعر فيه مواطنوه بالقهر والغربة؟ إن هذا يجعلك تنسى الوطن والوطنية وحتّى القومية العربية.

انتبهْتَ إلى أنّ رقية لم تبق تلميذة كما عهدتها، بل امرأة زادتها المحن تجربة وحنكة، وجرعة أكثرَ جرأة فقلت تُواسيها:" كلّنا غرباء في هذا العالم."

قبل أن تنام، أحضرتَ غطاءً، وأشرتَ إلى الأريكة. انتصبتْ واقفة وهزّت فَستانها إلى أعلى، حتّى بدا ساقاها المرمريان، فتذكّرتَ قصيدة: "إلى عابرة سبيل." ، لشارل بودلير، وغضضتَ الطرفَ. قالتْ والدهْشة تملأ عينيها:

- أقسم باللّه العظيم، إنّني متطهّرة. لقد خرجتُ من الحمّام وبقيتُ أنتظركَ حتّى أتيتَ. يقولون: مومس، عاهرة، فاجرة.. لست أبالي مهما تعرّضتُ للقذف، ما دُمْتُ أعرف نفسي وأحترمها. يا أستاذ، ما أنا إلا وردة استأْصِلتْ، وتكاد أن تذبل..

وقفتَ وقلتَ لها:

- إذا توهّمت أنّني التّربة، فالقناة جافّة.
دخَلتَ إلى غرفة النوم، وأحكمتَ قفله، كأنّك أنت الأنثى، وهي الذّكر.

في الصّباح، لبستْ جلبابها وحملت قفّتها، وأنت ما زلت تفطر. قمتَ تبحث عن حافظة نقودك، فخرجتْ دون أن تودّعك.

لمّا مضتْ أسابيع ولم تزرك، أصبحتَ توبّخ نفسك على سوء معاملتك لها. رافقك ذلك الشّعور بالذنب مدّة، إلى أن طرقتْ بابك ذات مساء.

أثناء الحديث، لاحظت أنّها لا تقول أمي للزاهية فسألتها. قالت:

- هل أمٌّ من ترتمي في أحضان خليلها بعد أسابيع قليلة من وفاة زوجها؟ هلْ أمٌّ من تهضم حقَّ ابنتها الوحيدة في الإرث، وتسرف في تبذير كلّ ما ترك زوجُها على اقتناء الملابس الفاخرة، وأدوات وموادّ زينتها، وتبعثر الباقي عند قدميّ خليلِها؟

قمت لتنام وقلت:" تصبحين على خير." ردّتْ وهي تغيّر ملابسها وتضحك:"أُدْعُ معي أن أُصْبِحَ على زوج."

رقيّة ساحِرَة كأميراتِ الخُرافات. رشيقة القوام كبطلة روسيّة. يَسيل من عينيها الواسعتين حزنٌ غامض بلون الحلم المجْذوم الذي

دُفن مع والدها. هناك فتيات يكون جمالهن نقمةً عليهن. إمّا أن يُصَبْن بالغرور، ويرفعن سقْف شروط الزّواج بهنّ حتىّ تُجفّفَ شمسُ الأيام تينَهنّ الذي كنّ يطمحن إلى بيعه بثمن الرُّطَب، فلا يجدْن من يَبْتاعُه، و لو دون أي شرْط؛ وإمّا أن تُثير رائحةُ بلوغهنّ قبل الأوان غريزةَ ذئاب تظلّ تطاردهن حتّى توقع بهنّ. ومن شَبّتْ نارُ فضيحتها في عشيرتها، اسْتقبلَها إسْطبْل الماخورِ كبقرة حلوب.

تألّمت بعدما أدركتَ أنّ من بين هذه الشريحة الاجتماعية من هنّ متعلمات ويعين وضعهن.

باكرا، أيقظك وقعُ خطواتها وهي تمشي على أطْراف أصابع قَدَمَيْها، كأمّ تخْشى أن توقظ طفْلَها قبل أن تهيئ له فَطوره. كان كلّ شيء في الدّار مُرتّبا ونظيفا.

وأنتما حول المائدة سألتها إن كانت تزور أمّها، فردّت:

- الزّاهية؟ بيْن الفينة والأخرى؛ لأنّني أشعر أنّ زيارتي لها، ورؤيتها لي لا تزيدانها إلا حسرة، وندما، وألمًا. كأنّي بسياط الضّمير ما زال يجلدها، عقابا لها على ما ارتكبتْ؛ لقد ضيّعتْ نفسها وأضاعتني.

لمّا فُصلتُ عن الدّراسة، أصبح تواجدي المستمرّ بجانبها يخلخل مواعيدها، ويعكّر صفو نزوتها، فاقترحتْ عليّ الزّواج بعزيز ابن حمّان. شابّ وسيم، يتدفق حيوية ونشاطا. مُجاز في الحقوق ويشتغل بإحدى الجماعات القروية.

أخذتُ اقتراح الزاهية على محمل الجدّ، وثقتُ في وعود عزيز، وبدأتُ أعدّ نفسي لمرحلة جديدة من حياتي، بعدما تخلّيْتَ عنّي.

قاطعتَها باندهاش:

- وهل سبق لي أن وعدتكِ، لأتخلّى عنك؟
- لا يهمّ، ولكن كان ذلك شعوري. ذات مرّة

شمَمتُ فيه رائحة الخمر، فأخبرتُ الزّاهية. انتفضتْ غضباً، وقالت لي وهي تصرخ:

- يشرب حتّى القطران ! وما دخلك أنتِ في

أمره؟ إنّه الوحيد من بين هذا العرمرم من الشباب، الذي يستطيع أن يحميك، ويحترمك، ويسهر على صحّتك وسعادتك.

لاحظتْ رقية خطوطًا متوازية دكناءَ على ظاهر يدكَ فسألتكَ. لم ترْدُدْ، وشَعرتْ بإحْراجك، فأفْرغتْ عليها جلْبابَها وحملَتْ حقيبتها وخرجت.

مضت أيّام ولم ترها. أحيانا، تملّ من الشّطائر والوَجَبات الجاهزة. تَتقَزّزُ وأنت تتذكّر تحقيقات تلفزيونيّةً عن بائعي هذه الوجبات. و من يدْري؟ لعلك أكلتَ من لحم كلبٍ أو حِمار.. لا ضَيْر. أليس الإنسان قارتا؟ "الأكل الذي لا يسمّم، يُسمّنُ."يقولَ حمّادي.

بمهارة أمّك ودُرْبَتها، شمّرت عن ساعديك لتُهيّئ ما تشْتهيه. لقد مَهَرْتَ في ذلك منذ نعومة أظفارك. كنتَ تزاحمُ أمّكَ في المطبخ، كما كنْتَ تخْتَلس أدوات زينتها وتقف أمام المرآة لتقلّدها. لكم وبّخَتْكَ، وعاقبتكَ بقسوة، وفي الأخير، أحْمت الفرشاةَ على النّار، ثم وضعَتْها فوق اليد الذي تمتدُّ إلى حقيبتها. قالت وهي ترغي وتزبد، والشّرر يتطاير من عينيها الدامعتين:

- أنت ولدٌ. ولَدٌ، ولستَ بنتاً. أتفهم؟ أترضى أن

تصبح أضحوكة بين أقرانكَ، والجيران؟

رصفْتَ الأطباق فوق المائدة وقد هَمَدتْ شهيتُك فالتقطتَ مضغة من هنا وأخرى من هناك كمُتناولٍ دَواءً، ثمّ تمدّدتَ.

سمعتَ طرقا على الباب، فقمتَ بخفّة، غير مُنتعلٍ وفتحته. دخلتْ أمام دهشتكَ المفتعلة، ولكي تبدّدها وتشرح ضرورة زيارتها لك قالت:

- لقد نَصحَ بعضُهم البيضاوية (القوّادة) بإخْلاء الدّار من النّساء حتّى تمرّ دوْريات الشُرطة.

قلت لها غاضباً:

- لا، لا. عودي من حيث أتيتِ، أو اذهبي حيث شئت. وإذا كنتِ من المبحوثِ عنهن ؟

قالت بصوت يخنُقه بكاءُ المغلوبِ على أمره:

- أبداً. أرجوك، أتوسّل إليك أن تتحمّلني حتّى تمرّ هذه الظروف العصيبة. والله لن أثقل عليكَ، ولن أكلّفكَ أيَّ شيء سوى المبيت.

وقفتَ تتساءل، أهي حيلةٌ حبَكتْ خيوطَها بحِنكة لتسْكنَ معكَ و قد تسْكنُك، أم حقّاَ ما رَوَتْه.

ولِمُداراة هواجِسك وحيْرتك، دَعوْتَها إلى مائدة الطّعام.

عَصَركَ خوْفُ غامضٌ كأنّه يُنْذر بِوُقوعِ شيءٍ ما، وتمدّدتَ فوق الكنبة فاستلقتْ بجانبك. قمتَ كالملدوغ وبَقيتَ واقفا إلى أن استقامتْ

فجلستَ على الكنبة الأخرى. أسندت ظهرها إلى الحائط، ووضعت يديها مشبوكتين خلف رأسها، وطفقتْ تغنّي بصوت رخيم وحزين. لمّا أرادت أن تنام قالت لك إنها قد تذهب غدا إذا ما طلبت منها بديعة أن تعود.

في الغد، وأنت تعود من العمل مساء، استقبلتْكَ كربّة بيْتٍ زَوْجَها. كان وجْهُها يَشعّ بشاشة، فابتسمتَ لها وفي عينيك فرح طفوليّ. شممتَ روائحَ تُثير شهيّة حتّى الذي بَشِمَ من الطّعام. ما ألذّ وأمتع أن يأكل المَرءُ وجْبة لم يطْبخها، أو لم يفكّر فيها حتّى ! سألتك إن كنت تستطيع عزف أغنية عبد العزيز الستاتي:" حكمتْ عليها الظّروف". أجبتها بأنّك لا تحفظ كلماتها.

جلسْتَ، فجلستْ بجانبك وقالتْ وهي تصُبّ الشّاي:

- ليلة السّنة الميلادية، دعاني عزيز للعشاء معه في إحدى الفنادق الشّاطئية، فارتديتُ أحسن ما أملك. أثناء الطّريق، شغّل الموسيقى وضاعف الصوت، وبدأ يغنّي. سبحتُ في عالم الخيال برائعة أم كلثوم: (هذه ليلتي)، إلى أن توقّفت السّيارة أمام الفندق. ولجنا قاعة تتراقص فيها الأضواء. شبّان بتسريحات شعر غريبة، وملابس أغرب، وفتيات شبه عاريات، يرقصون في هستيرية على أنغام موسيقى صاخبة، ويشربون ويدخّنون بشراهة. اشمأززتُ من روائح المكان، فأصابني الدُّوار. طلبت منه بحزم أن يعيدني إلى بيتنا. أخرجَ من جيبه علبة وفتحها. أخذ منها سلسلة ذهبية. وقف وطوّق بها جيدي، وَقبّل جبيني ثمّ أجلسني وقال وهو يضحك:" كل هذا وغيره من أجلك وأنت تريدين أن تتركيني وحيدا." قلتُ له بنبرة تهكّمية:"أنا أحبّ الورود، لا الذهب." أشار إلى النّادل، فجاء مسرعا ووضع أمامنا قنّينتين من الخمر وباقَةَ ورود أوشكت أن

تذبل. ملأ كأسين ودفع لي بواحدة، ثم قرع كأسه على كأسي، وقال: " في صحّتك" فقلت له:" أريد عشاء، لا خمرا." ضحك حتّى أثار انتباه مَن حولنا وقال:

- خمر؟ هذه تُسمّى البيرّة. إنّها من عَصير الحنطة، الشّعير، ولا تَحتوي على كُحول. ألا تأكلين الشّعير؟ إنّها من المُشَهّيات التي تُشرَب قبل الأكل. (C'est un apéritif.). ذوقي لتتأكّدي بنفسك.

أشار إلى النّادل، فلم يتوانَ هذا الأخير في إحضار أطباق من السمك والسلطات المتنوّعة وفواكه البحر. فاحت منها روائح لذيذة فَتحتُ شهيّتي فأكلت بنهم. توقّفتُ لحظة، وتنفّستُ الصّعداء، فقال لي:"اشربي لتأكَلي أكثر." بعفوية كمن يشرب الماء، أفرغتُ نصفَ الكأس في جوفي، ثمّ تجشّأتُ. كنت آكل وأشرب بنهم. أحسست براحة عميقة، فأصبحت أتكلّم كثيراً، وأضحك أكثر. بعد حين أحسستُ برغبة ملحّة في التّبوّل، فدلّني على المرحاض. لمّا وقفتُ، شعرت بالأرض تميدُ بي، وأنّ المكان غير المكان، وكنتُ أتمايل في مشيتي فأدركتُ أنّني سكِرتُ بحقّ.

اصطدمتُ بأحد الشبّان، فحضَنَني كي لا أسقط. ظنّ عزيز أنّه يجبرني على الرّقص معه، فقام بسرعة، ولكمه على ذقنه، حتّى سقط. كثُر الصّراخ، والتّشابك بالأيدي، والتّدافع، والتّقاذف بالشّتائم، فالكراسي، وشعرت بالدّوران، فجلستُ أتقيّأ.

قلتَ وأنت تضحك:

- وإنْ تَكنْ تغلبُ الغلباءُ عُنْصُرها *** فإنّ في "البيرّة" معنى ما ليسَ في"الحنطة" عذرا شاعرنا المتنبّي.

- استيقظتُ صباح السّهرة المشؤومة وأنا مصدوعة بذُوار من أثر الخمر. شعرتُ بألَم مُبرح، فصحوتُ من سكرتي، فصرت أصفعه وأصرخ:" لقد سرقت شرفي." ضحك وقال، وهو يَفرُك عينيه ويتثاءبُ:"ألستِ زوجتي؟"

انفجرتُ حنقًا، وجذبتُ السّلسلة من عنقي بعنف حتّى تقطّعت وجرحتني. رميْتها في وجهه وصرختُ فيه أن يُعيدني إلى منزلنا.

لمّا اعتُقل والده والزّاهية، صرتُ ألحّ عليه في الوفاء بوعده، بعدما بقيت وحيدة. هدّدني بأننا سنقيم العرس في السّجن، إن لم أنْسَه.

عدت مساءً، ففتحتَ البابَ، وخشيتَ أن تكون قد ذهَبَتْ لكنّك شممتَ عطرها. مدّتْ لَكَ يَدها للسلام، فضربتَ كفّها بكفّك، وجلستما حول المائدة. قالت:

- إنّه من المشهّيات، يُشربُ قبل أو بعد الأكل وحتّى أثناءهُ إذا كانت الوجبة خُبزاً حاف.

شنّفتْ مسْمعكَ بشَرْشَرة الشّاي، رافعةً الإبريق إلى أعلى فأعلى. قالتْ ضاحكة، وهي تشير إلى الحبَب الذي كلّل الكأس:

- رَزّةُ "البيرّة المغربية"، تقولُ مريم العبدية، ولو أنّها لا تشْربُها. المسكينة، انفصل والداها، وهي في الثّانية عشرة من عمرها، فتزوّج أمَّها جزّارٌ، متزوّج، ولكنّه لم يرزق بطفل، ظناً منه أنّه سينجب مع الغالية. المكّي سكّيرٌ، لئيمٌ، لجوجٌ، وخبيثٌ. كان طويل القامة، عريض المنكبين، عظيم البطن، هامتُه كصندوق من خشب، يمشي متبخترا وذراعاه تتأرجحان.

كلّما أرسلتْها أمّها عنده لغرض ما، أدخلها خلف الثلّاجات في الدّكّان، وفَعل بها ما لا يفعلهُ إبليسُ مع بني جلدته. تتألّم، وتبكي كثيرا في صمت، فيُريها المناشير والسّكاكين، والآلة التي تَفرُم اللّحم، ويقول لها:" لو أفشيتِ شيئا من هذا لأمّك أو لأحد آخر، فسأقطّعك وأبيع لحمك للزّبائن، وقد تأكل منه الغالية."

بعد مدّة، أدركت من تصرفّات أمّها أنّها شمّت

رائحة الخيانة، فأصبحتْ تترصّدهما. باتَ التّردّد يلعب بمريم، والهواجس تؤرّقها. إن باحت لأمّها بالسرّ، قد يتشاجران فتقتله أو يقتلها، وإن سكتت، فقد تفاجئهما يوما ما، فتظنّنها متواطئة معه.

ذات ليلة، انتظرت حتّى ناما، فتسلّلت إلى حافظة نقوده، وأخذت منها بعض الورقات المالية، وحملت بعض ثيابها في حقيبة أمّها، وخرجتُ.

بعدما هربت مريم العبديّة ليلا، إلى هذه المدينة، سكنت مع تلميذات يأتين من البادية لمتابعة دراستهن، واستقرّتْ لتتدرّب على الحلاقة. لا تمارس الرّذيلة إلاّ بعد أن يخنقها العوَز، ولا تذهب مع كلّ من هبّ ودبّ. أحيانا تُطيل العشرة مع أحد يعِدها بالزّواج؛ إذا تأكّدتْ أنّ ذلك لن يتمّ، فإنّها تحاول ابتزازه بكل الطّرق. كلّما آنستْ من أحدهم ضعفا في شخصيته، وخوفا على سمعته، تظاهرت بالحمْل، ووضعته بين خيارين: الاعتراف بأبوّة الجنين، أو الإجهاض. وهكذا تحصل على مبلغ محترم. كانت تتلهّف على توفير قدر من المال لتحقّق حلمها. تقول لي:" يجب على المرء أن يدّخر الدرهم الأبيض لليوم الأسود." فأردّ عليها ضاحكة:" كل الأيام سوداء، ولا درهم أبيض."

ما تزال مريم تطمحُ إلى الزّواج، وحياة مستقرّة. تضرب لي مثلا، قصّة بِنْت السّمّاك التي أفلحت في العثور على زوج رغم صفحات ماضيها الملطخة. تُريدُني مريم أن أصدّق ذلك، وأحلمَ مثلها، لكنّني لا أرى في الأفق غير بقايا عَجاج قطار مرّ ولم يتوقّف، أمْ توقّف ولمْ أصْعدْ.

زارتك رقيّة ذات مساء، فأخذتَ العود وطلبتَ منها أن تنصت إليك باهتمام بالغ، لا كما عندما كنت تشرح لها بعض تمارين الرّياضيّات أمام المدرسة، وهي شاردة. ضحكتْ وسألتك إن كنتَ تنتبه إلى ذلك آنذاك. ناولتها نصّاً قصيراً، وأمرتها أن تقرأه. شرعتَ تعزف وتغنّي وهي تتابع. بعد المرّة الثالثة، بدأتْ تغنّي معك. طلبت منها أن تعيد الأغنية وحدها، فرجتْك إعفاءها وقالت:

- بصراحة، حين أغنّي معك هذا النّوع، فلأنّني أُجاملك فقط. أشعر كأنّ صوتي لا يخرج من أعماق أعماقي، وإنّما من الحنجرة.

شعرتَ بحسرتها لعدم قدرتها على تلبية رغبتك، كما أعجبتَ بصراحتها. أخذتَ القلم وبدأت تخربش ورقةً، فاقتربتْ منك. رأت خطوطا وأشكالا هندسيّة فسألتك ماذا ذلك رسمت. أجبتها بأنّها لوحة تكعيبيّة، فقالت:

- هذه خربشات يستطيع أيّ طفل أن يرسم مثلها. اللوحة عندي هي أن أرى الحمامةَ حمامةً؛ أنظر إليها فتستفزّها نظراتي؛ وأراها تلتفت يمينا وشمالا حتّى لكأنّها تستعدّ للطيران؛ وأرى الحصانَ حصاناً، أركّز فيه فأَرى قوائمه تتحرّك في خبَبٍ، وأكاد أسمع صهيله..

- ركّزي هنا وسترين وتسمعين.
- وماذا ترى وتسمع أنت، راسمُها؟
- اللوحة كالنّصّ المفتوح، كل مشاهد يؤوّلها حسب قراءته ومن الزاوية التي تثير انتباهه.

- وماذا يمكن أن يقول فيها شيخاك: ابن سيرين و فرويد؟

- لا، هذه يستطيع قراءتها بيكاسو، وجورج بركْ، وأنا الذي رسمتُها.

شعرت بميل إلى الدردشة، فسألتها كيف وصلت عند البيضاوية، فقالت:

- لمّا بقيتُ وحيدةً، أصبح جميع السّكّان يتجّنبون التحدّث إلي أمام النّاس، ولكن إذا التقيتُ بأحدهم بعيدا عن أعينهم، يستقبلني بمتوالية من الأعذار، ويواسيني، ويحاول التّقرّب منّي والتّعاطف معي. كانوا يترصّدون حركات بعضهم، وتنقّلاتي، لاعتقادهم أنّ من بينهم خليلاً لي، ولكنّهم كانوا واهمين.

أصبحتُ أكلّم الدّجاج كأنّه بشَر، وألعن الطّريق إذا ما تعثّرتُ بالحجر. وألومُ الباب، وأضربه برجلي إذا عصى عند فتحه. أحيانا أنسى أنّ الزّاهية في السّجن، فأناديها بأعلى صوتي..

بدأتَ تتملْملُ في جلستكَ، فأدركتْ أنّك تعبتَ، أو لم يشوّقك حكيها، فقامت لتجمع الأطباق، وقالتْ:

- وسكتت الهتماء عن الكلام غير المباح.

دخلت غرفة النوم وأطفأتَ الضّوء، وأنت مبلبل الأفكار، فشعرتَ ببعض الميل إليها يُعْشبُ في فؤادك، لكنّك خشيتَ التعوّد على وجودها قربك، والعادة أمّ الإدمان. أَليستْ هذه نزوةً كالسّيجارة والكأس والقمار..؟ يفعل مُدْمِنُها كلّ شيء من أجْل إشْباعِها، ثمّ يَندم ويقسم بأغلظ اليمين إنّه لنْ يَعودَ إليها، ويَعود. يَعودُ عندما تغْدو عنده حاجة بيولوجيّةً لا يُمْكِنُ التنَفّسُ بِدونِها.

ساورَك الخوف عندما تساءلتَ بماذا ستجيبُ لو وشى بك أحد الجيران، وضُبطتْ معك. ستقسم بالله إنّك لم تطأْها قطُّ، وسيضحكون عليكَ، مستهزئين بك، وسيسألونك إن كنتَ يوسف. سيقول آخر:" ما اختلى رجل بامرأة إلا والشيطان ثالثهما." ستقول فاعل خير، وسيضحكون ويسألونك إن كنتَ لا ترى المتشرّدين، وذوي الحاجات الخاصّة يتجمّعون أثناءَ كلّ صلاة أمام المساجد.

صباح الغد، أيقظك رنين الهاتف، فانسللتَ من فراشك بخفّة. وأنت تفرك عينيك. أردتَ أن تسألها إن كانت البيضاوية، فقالت:

- صباح الخير، إنّه هاتفك الذي تركتَه فوق المائدة. اِجلس لتفطر.

لم يكن المتصل إلاّ زميلك، فقالتْ بحزن حرّك دواخلك:

- كنتَ تظنها بديعة؛ أعرف أنّني فائضة عن الحاجة، بيْد أنّي ما زلت آنَسُ منك عطفا ما فتئ ينمو، ولكن لا أعرف السببَ. اتّخذني كيفما يطيبُ لك: خادمة، أختاً، صاحبة، قريبة، لا يهمّ. استُرْني. إنّ غموضك لا يزيدني إلاّ تشبّثاً بك. فماذا قرّرتَ؟

ولكي تهْربَ من نفسك قبل أن تتهرّب من طلبها، تصُمّ قلبكِ وأذنيك. تُحمْلق إليك، فيرتدّ بصرُها خائبا. وفي بحْر عينيْها تتلاطُم أمواجُ أسئلةٍ تتكسّر على صخْرِ سمْعكَ المُبَلَّطِ بوقْرِ أسباب مبهمة ومثبِّطة.

في طريق عودتك مساءً، لم تشعر حتّى وقفتَ أمام تاجرٍ للملابس الجاهزة، واشتريت لها جلباباً وقميصاً. ما أن ابتعدت عن المتجر حتّى أصبحت فريسة للهواجس من جديد: ستسْألكَ عن مناسبة الهدية، وقد تعتبر ذلك إشارة على تعلّقك بها. ما أقتلَ العفوية ! هل هي منْقبةٌ أم مثلبة؟

سمعتْ هدير الدرّاجة النارية، ففتحت الباب، وبقيتْ مختفية وراءه. لتمزح معك، جذبتك من الخلف من ياقاتك. تذكّرت ليلة زيارتها الأولى لك في المدرسة، فضحكتما.

قالت وهي تتطلّع إليك بعينين يشعّ منهما فرح طفوليّ، وابتسامة تنمّ عن الرّضا عن النفس:" لقد كلّمتني مريم، ودعتني لقضاء بعض السّويعات معها ومع أمّها التي اشتاقتْ إلى رؤيتي."

ناولتَها الكيس البلاستيكي، وذهبتْ لتضعه فوق الأريكة، فأمرتها بفتحه. اندهشتْ، واغرْورقتْ عيناها بالدّموع، فعانقتكَ، وقالت:" الله يحفظك." دخلتْ إلى غرفةٍ، وبعد دقائق خرجتْ وهي ترتديهما. أخذتْ تمشي أمامك ثم تدور كعارضة أزياء. سألتك كيف بدتْ لكَ، فقلت وأنت تضحك، بعدما تذكّرت جملة أستاذة اللّغة الفرنسية عندما حدّثتك عن الترجمة:

"وهل يَشينُ جمالَ الحسناء ما ترتديه ولو كان أسمالا؟"

دون مقدّمات، أو ربّما قد حسِبتْ أن ما دار بينكما مقدّمة المقدّمات، ردّتْ بسؤال مشحون بوقود جرأة دون رصاص طوّح بكَ في بيدِ الجِدِّ:

- لم لا نتزوّج؟

- و لماذا لا تعودين إلى بيتكم في الدّوّار حيث الأقارب والأهل، حتّى يجعل الله لك مخرجا؟

- وهل عاد يوْما إلى الجحيم فارٌّ منه بمحْض إرادته؟. تزوّجْني وسأنجبُ لك ابْناً يرِثُ منّا أجْمل ما فيّ وفيك.

- وهل أنا جميل؟

- وَسيم و خَلوق..

لم تعقّبْ. أنتَ تعلم ما الّذي ألجمكَ، بينما هي تردُّ السبب إلى سُمعتها.

نبّهتها إلى أن تنزع الثّياب الجديدة كي لا تتّسخ، وتحتفظ بها لمناسبة ما. ردّتْ وهي تضحك:

- هل أنا طفلة لا ألبس الثّياب الجديدة إلا في المناسبات والأعياد؟ أنا أحبّ الأناقة دائما.

- ستثيرين في الشارع إعجاب حتّى المتزوّجين.

- ما أكثر من تعْجبهم بعض من هنّ مثلي، ويودّون لو يخْتَلون بهنّ ولو للحظة، ولكنّهم

أمام الملإ دُعاةٌ، ومنظّرون. يا لهم من منافقين، وأفّاكين. يا لخبثهم ومكرهم !

قبل أن تنام طلبتْ منك أن تعزف لها أغنية: (كتَعْجَبْني) لعبد الوهاب الدّكّالي غنّتْ ورقَصتْ، وكلّما علا صوتُها، رفعتَ رأسك وأشرت بعينيك إلى أعلى وأنت تعزف، فتفهم أنّك تعني الجيران.

استيقظتَ متأخّرا فانسللتَ من فراشك. أرهفتَ السمع لعلّك تسمع حركاتها أو دنْدنة، لكنّ الصّمت كان سيّد المكان. لم يبق إلا عطرها. لاحظتَ ظرفا فوق المائدة، وفتحتَه فوجدت بداخله رزمة من الأوراق المالية ومعها رسالة، ثمّ قرأتَ: "صباح الخير، لم أحْبِبْ أن أزعجك. قد كنتُ أنوي أن أودعك هذه المبلغ من المال البارحة، ونسيت. أنا لا أستأمن أحدا غيرك. إنّني أعمل على ادّخار ما استطعت توفيره تحسّبا لأيام أسود من هذه."

في طريقك إلى العمل كنت تفكّر في رقيّة وأمثالها. ألسن جميلات، ودودات، وديعات، مطيعات، خدومات، مؤنسات، مسليّات؟ قد يلمس فيهن البعض ما لم يألفوه في نسائهم من تفاهم وانسجام روحي وجسديّ. في حضرة إحداهنّ ينسلخ الرّجل من ذاته، ويتصرف بعفوية كطفل مع صديقته. إنّهن مغاسل عموميّة تتطهّر فيها الأرواح الحائرة من جواثيمها الخانقة. في رياضهنّ ترتع الأجساد الجائعة، والباحثة عن نتفةِ لذّةٍ لتُشبع غرائزها الشرهة. طرح الدهر بهنّ كل مطرح، فكنّ لأسرار المدينة حافظات كآبار مهجورة تُرمى فيها المواجع، والهفوات وتبعاتُها. ألسن بعد هذا وغيره مدارس للتربية الجنسية؟

تساءلت ماذا كنتَ ستفعل لو أدرجتْ وزارة التّربية الوطنية حصةَ للتّربية الجنسية في المقرّرات الدّراسية. قد يهمل تدريسَها كثيرون ممن سيعتبرون أن ذلك سيخلّ بالأخلاق والدّين وسيجعل من المدرسة ماخورا، وقد يستغّلها بعضُ من يدّعون التّحرّر والتقدّمية والعلمانيّة المزيّفة فيجعلون من حصصها فرصة لتمييع الأخلاق، وكسر حواجز الاحترام.

جلستَ لتقوّم بيتين مكسورين تداعيا في حقّها، فسمعتَ طرقاً؛ تركتهما كسيحين وأسْرعتَ نحو الباب. فَتحْتَه بلَهْفة من يَنْتظر. وقبل أنْ تسْألها سلّمتْ وقالتْ:

- كلّما هممتُ بالعودة، ألَحّتا عليّ في البقاء معهما.

تريد رقيّة أن تعلّل لك غيابها بسرد أنشطتها بالسّاعة واليوم كأنّك زوجها. دعوتها للجلوس، فقالت متحسّرة:

- كان حفلا منظّماً وبهيجا. أمّا الهدايا، فقد ضاقت بها غرفة فسيحة حتّى بدت كمتجر. العروس ليست جميلة؛ أنفها أفطس، وحاجباها كثّان، وأهدابها منتوفة، وبشرتها صفراء، لكنّ العبدية تكلّفت بتزيينها، فَحوّلتها إلى عروسة بحقّ.

- يوم زفافك ستكونين أجمل عروس.

تنهدت ثم قالت:

- وحتّى لو وجدتُ فارس الأحلام، وأقيمَ لنا حفل زفاف بمثل تلك المواصفات، فهل سيرقصون، ويغّنون على إزار أبيض؟

- البكارة؟ الصين وما أدراكِ ما الصين.
قامتْ إلى المطبخ، فالتفتّ إلى البيتين فرمّمت كسرهما وألقيتَ شبكتك في خضمّ الخيال.

أخرجتك من تأمّلك رقيّة بعدما قالت إنّ الله قد منّ على العبدية؛ ستفتح صالونا للحلاقة، وسيُجهّزه لها خليلها وهو مستخدم في البنك.

وهي تعود من المطبخ، رأيتها تحمل قنّينتين، فانتفضتَ غضبا وقلت بصرامة مفتعلة، بعدما أدركتَ أنها منحتك فرصة وسببا مشروعا للتخلّص منها:

- لا، لا، ثمّ لا !
- لماذا لا؟ هل هي حرام؟ ولمن تُباع في هذه المدينة المسلمون أهلُها؟ أأنا الوحيدة التي تشرب كل ما توزّعه الشّاحنات على الحانات في هذه المدينة التي لا يوجد فيها سوى المسلمين؟

أفحمتك بجرأتها التي أدهشتك فصمتّ. جلسَتْ ملتصقة بك، كأنّها أرادتْ أن تشْرعَ باباً إلى الودّ والتّعاطف، فَحَسِبْتَ ذلك تغنّجا ودلالاً. حمْحمْتَ كحِصانٍ مُسْتفزّ، فَنَحْنحتْ، وتحرّكتْ كأنها تبتعدُ قليلا، غير أنّها لم تبْرَحْ مكانَها. أزالتْ سدّادة قنّينة الجعّة بنابها، مسحت بكفّها على أعلاها، ثمّ أفرغت نصفها في جوفها. تجشّأتْ وحمدت الله. قمتَ مبتعدا وقلت بلهجة من يتوسّل:

- أرجوك، أنتِ تعرفين أنني لا أشرب، ولا أجالس من يشرب. فلا تُعيديني إلى أيّام، ما زلت أتساءل بندم موجع لماذا كنتُ أشرب.

أرسلت ضحكة مترقرقة كجدول وقالت:

- الكلُّ قاعِدةٌ وأنا اسْتثْناء.

- عندما تشربين البيرّة التي تقولين إنّها ليست خمرا، هل تسكرين؟ إن كلّ مسكر خمر، وكل خمر حرام.

- في أوّل التّعاطي لها، كنتُ أسكر، أمّا الآن فإنّني أشرب مثل حفرة، ولا أسكر.

ملأتْ كأسا أخرى، وأفرغتْها في جوفها صِرْفا، ووضعتها بقوّة فوق المائدة كأبْطال أفلام "الويستيرن". سَهرْتُما طويلاً كنتَ تسْألها في تحفّظ لا يخدش كرامتها (أية كرامة؟)، كمن يريد أن يدْرس تلك الظّاهرة المجْتمعية، أنت الّذي لم تستطعْ فهمَ نفسك ولو لحظة واحدة. تُدْركُ رقيّة قصْدَك فتُفرغ كلّ ما في جعْبتها ببساطة وسلاسة تُربِك تحليلاتك، و في حلبة التّأويل تجعل خيالك يهرول خلف صورِها المستفَزّة. تكْتفي بالإنصات كطفل تُؤنسه أمّه بحكايات من خُرافات الأجْداد. أثقلتْ روحَك بهمّها ودمعتْ عيناك أكثر من مرّة.

شَربَتْ حتى ثَمِلَتْ، وحلْحلَ الشراب عقاربَ حَنينِها لتدورَ عكسيًّا. وقفتْ والسّكرُ يتعتعها، وأخذت بيدك وجذبتك لتقف وقالت:

- سأرقصُ رقصة شرقية. خذْ عودَك واعزف.

أحضرتَ الآلة، فطلبت منك أن تعزف لها :" أنساك، أبدًا.." لأم كلثوم. بعدما دوزنْتَ آلتك، أشرتَ إليها فأخذتْ تترنّم بالأغنية؛ تطرّزها بصوتها الرخيم، وتفرغ عليها حلّة نسجتْها من عهن آلامها وآمالها. لمّا وصلت إلى :"واحبّ ثاني ليه، واعمل في حبّك إيه..؟" كرّرتْها عدّة مرّات ورفعتْ صوتَها عاليا كأنّها تُخاطبكَ، فرجوْتها أن

تخْفضه. قهقهتْ حتّى سَعلَتْ فتقيّأتْ. بعدما مسَحتْ فمَها بحركات ثقيلة من يَدْيها المُرْتخيتين، سألتك في تَلَعْثُمٍ:"هل تخْخْشى الجيييير!!!ان..؟"

بَدتْ لك كلمة "تخْشى" شاذّة، وفي غير سِياقِها. لكن، ولمَ لا؟ نعم، أنتَ تخْشى أن لا تُبادلهم نفسَ الاحترام الذي يكنّونه لك كما تخشى المُفاجأة. ضجّت الغرفة برائحة قيْئِها فأصابك الغثيان. صرختَ بغَير قليل من الانفعال:

- أرأيتِ ما فعلتْه بكِ أمُّ الخبائث..؟ فلماذا تُعاقرينها؟

فكّرتَ في طرْدها. لو فعلتَ ذلك في تلك السّاعة، لَتخَطّفتْها ذئابُ اللّيل عند أوّل خطوة بعد العتبة.

جلستْ تبكي بصوْت يمْتزج فيه الضّحك بالبكاء المَرير على تفاهة الحياة وعِنادها. تركتها وقمتَ لتنام.

أيْقظْتَها قبل الفجْر. وضعْتَ القناني (فارغة ومملوءة)، وبعضَ الفواكه، والقميص والجلباب في قفّتها، ودسستَ في يدها ورقة مالية . طلبتَ منها، بحَزْم وعَزْم من يرْمي بالطّلقة الثّالثة، أن تنْساك.

حملتْ قفّتها ووقفت بالباب ثمّ دندنتْ بصوت حزين: " أهو ذا اللّيّ مُشْ مُمْكن أبدا، أبداً.." وغابتْ في الغبش.

في آخر الأسبوع، جلستَ إلى القصيدة، تعيد قراءة الأبيات السابقة، كأنّك تداعب بقَرة بمُلامسة ظهرها وعنقها ليذرّ حليبُها. شعرتَ بفتور وإحباط، وتمدّدتَ فوق السّرير فلم تدر كيف تسلّلتْ صورة رقيّة من بين رُكام القوافي المُتهالكة، واخترقتْ خيالَك لتشدّ بخناق تفكيرك.

أَيُّ هوىً ذاك الذي أسرجكَ وركبكَ بين الأزقة المُظلمة والموحِلة. تتلمّسُ طريقك فتضيعُ بين برْكة ومسْتنقع، في زُقاق ضيّق كأفق مُسْتقبلِ رقيّة في هذه الحياة.

أمام الباب، التفت كلصّ، وأسْدلتَ قُبّ جِلْبابك على رأْسِك. أخرجت المفتاح وطرقتَ طرْقا عنيفا أزْعَجكَ بقدْر ما أخْجلك حتّى كِدْتَ تطلقُ ساقيْك للرّيح لوْ لم تُفتحْ نافذةُ غرفةٍ في الطّابق الأوّل. سمعْتَ رقيّة تقول:" إنّه لي." ابتسمتَ وخجلتَ من نفسك عندما أحسست أنها اعتبرتك بضاعة تخصّها. فتحت رقيّة الباب وقالت لك، وهي تكاد تطير من الفرح:

- اصعدْ أو انتظرني حتى أرتّب أمري.
لم تسألك لماذا أتيت. بقيتَ تنتظر في أسفل الدّرج، فاستبدّ بك الخوف من أن تمرّ الشّرطة في خرجاتها المفاجئة وتحملك معهنّ إلى المخفر. "الأستاذ والشلّة في السلّة": سيكون موضوعا دسما تحمله مناقير النّميمة لتسلو به المدينة همومَها الوضيعة إلى أن يلقموها عِلْكاً آخر.

رأيتَ امرأة تنزل السّلّم بتبختر، ترتدي شبشبا، وقميص النّوم؛ تدخل يديها في جيبيْه ، وتقبض على سيجارتها بطرفي شفتيها. وضعتْ يدها على كتفك، فطأطأتَ رأسك. رفعتْ ذقنك بيدها وحدّقت في وجهك فقلت بانفعال:"احترمي نفسك."

تراجعتْ بخفّة وانكمشتْ كحلزون تلقّت ملامسُه إنذارا بالخطر. نزلت رقيّة السّلّم بخفّة مُهرةٍ، فقالت وهي تدفعها من كتفها نحوك:

- اِعْتنِ بها أيها الظريف. إنّها بضاعة لا تُسلّم إلاّ للخواصّ.

خرجتما، وأنت ترفل في جلبابك كأنّك خارج من سوق النّخاسة. وأنت تعودُ بها، طلبْتَ منها أن تَتْركَ بينك وبينها مَسافةَ درْءاً للشّبهة. غمركَ كبرياءُ صيّاد يعودُ مَليءَ الجرابِ. ربّما كانت هي كذلك تمْلؤها فرْحةُ ذئْبة اسْتفرَدتْ بِحَملٍ شَريد.

في مُنْعرَج زقاق ضيّق و مُظلم رأيت شبّانا يحتسون الخمر ويدخّنون. تساءلت ماذا ستفعل لو تجرّأ أحدُهم على اختطافها منك. أخذتَ نفساً عَميقا، وتقدّمْتَ في شُموخ المُتحَدّي فالْتصَقتْ بك كظبْي بأمّه عندما يُحاصِرهما قَطيعُ ضِباع. كلّما اقتربتَ منهم ركضتْ خيولُ النخْوة في شراييْنك، وازدادَ خفقانُ قلبك. إنّها قضية شرف، كبرياء، رجولة، تضحية، شهامة، أنفة، عزّة.. كل هذه الكلمات وغيرها، والتي تَعني إمّا أنْ تكون أو لا تكون، تنْفُثُ فيك روحا قتالية لخوْض تجْربة لم تَخْبر مثلها من قبل. مررتما بجانبهم وكأنكما لم تمرّا.

في البيت، أخْرَجتْ من حقيبتها علبةَ عصير، وحلوى لك، ووضعتْ فوق الطّاولة قنّينة، فنظرتَ إليها مستفهما، فقالتْ وهي تضحك:

- ماذا تظنها؟ عطر؟... إنها ويسكي: الخمرة الرفيعة. أعْطتني إيّاها العبديّة ممّا فضَل من الزّواج الذي كانت تحلم به.

طلبتَ من رقيّة أن تكفّ عن الشرب حتّى تتعشّى، فقالت: "لطالما شربت هذا النوع ولم أسكر."

ولتلهيك عن موضوع الشّرب قالت:

- تلك هي بديعة البيضاوية. كانت فتاة حادّة

الطّباع ومتمرّدة منذ صغرها. سمراء اللّون، قصيرة القامة، لكن لها عضلات ملاكم. تعلّق قلبُها بأستاذ اللّغة الإنجليزية، لأنّها وجدتْ فيه شابّاً رومانسيا، يدخّن الحشيش مثلها، ويعزف على القيثارة. كانا لا يفترقان حتّى ظنّ من يعرفهما أنّه سيتزوجها، لكنّها فُصِلتْ عن الدّراسة لتعثّرِها وسوءِ سلوكها.

ضبطها في آخر السنة أستاذٌ مراقِب أثناء الامتحان وهي تغشّ، فسحب منها الأوراق المشبوهة، وورقة التحرير، ثمّ سمح لها أن تبدأ من جديد. لكنّها غافلته، وأخرجت أوراقا أخرى. انتبه إليها وأراد أن يسحبها منها ويتركها لحالها، فمنعته. وقفتْ وتوسّلتْ إليه أن يتجاهلها، لأنّها إذا لم تنجح، فسيكون مآلها الشارع. صرخ فيها بعنف وهو يحاول خطف الورقة من يدها:" اِحْكي لِمخّكِ". استلتْ من جيبها شفرة الحلاقة، ووقّعت بها على وجهه، ويده، ثمّ فرّتْ.

قضتْ بديعة شهورا في السّجن، ولمّا خرجت، وجدت نفسها عاجزة عن شراء الأدوية لأمّها العليلة، وسدّ حاجياتها. لم تتحمّل معاناة أمّها وهي تراها تتألّم، وتموت أمام عينيها، فتاجرتْ في الحشيش والأقراص المُهلوسة. لكن سجنها مرّة أخرى عجّل بوفاة أمّها. بعد خروجها اشتغلتْ كمحترفة إذ انضمّت إلى مجموعة تتاجر في الحشيش، والأقراص المهلوسة.

بديعة ذات ملامح حسنة، دعجاء العينين، وشفتاها قرمزيتان. قلّما تبتسم، فتفترّ عن أسنان لمدخّنٍ محترف. لا تطيل الكلام؛ غالباً ما تضع نقطة نهاية أثناء الجدال، لنصّ مُعارِضها بصفعة أو لكمة، أو ركلة، أو نطحة بالرّأس، وإن كان نِدّها فَبِنَخْسةٍ من سكّين، وإذا بدا لها أقوى منها فبطعنة من سيْف.

بعدما تزوّج أبوها، تكرّرت الخصومات بينها وبينَ زوْجته. أنْتِ تعرف أنّ كلّ حديثة عهد بالزّواج، تريد أن تكون هي سيّدة البيت. تتربّع على قلب زوجها وفكره، وتتصرف في وقتها كما يحلو لها.

ذات صباح بعدما خرج أبوها إلى العمل، دخلت مع زوجة أبيه في جدال حادّ ، انقلب إلى شجار. سدّدتُ لها البيضاوية لكمةً صاعدة، إلى ذقنها حتّى انبطحتْ. لمّا لم تتحرّك، لَملمت بديعة بخفّةِ سارقٍ بعضَ ملابسها، وغادرت البيْت، على مضضٍ وهي تبكي.

قاطعتها ونبّهتها إلى أنّ السكّير مَتى أفرط في الشّرب، أصبحَ يَهذي، ولا يُعْتدُّ بِكلامه. ردّتْ وهي تضحك كطفل يغالبه النوم:

- يا لَقصور علمك يا أستاذ. عندما يطفح السّكران، فإنّه يتقيّأ أسراره الخبيئة. صدّقني، لو سكرتَ لأفرغت كلّ ما في جعبتك، فرأيتكَ عاريا كما لم أركْ.

صمتّ، فاسترسلت في الحكي:

- بعدما استقرّتْ بديعة في حيّ جديد، كوّنت خليّة من المروّجين والمخبرين. كانت تغدق العطاء على الفقراء من حيّها والأرامل واليتامى. شعرَ أمثالها في الحرفة بقوّة منافستها لهم، واكتساحها السّوق بعدما جرّت البساط من تحت أقدامهم، فَوَشوا بها.

ذات صباح، وهي تقف في مدخل الزقاق، جاءها شابّ على درّاجته النارية وأخبرها بدخول سيّارة الشّرطة إلى الحيّ. لملمت بخفّة ملابسها وحملت حقيبتها وركبت خلفه.

في الفجر، استقلّتْ أوّل حافلة على أهبة الانطلاق، فحطّت بها عصا الرّحال في دكّالة، واستقرّت في هذه المدينة المباركة، في " واد الضّفادع"، وهو حيّ تنشط فيها بائعات الهَوى. استقطبتْ فتاتين، وأنا.

ضحكتَ وقلتَ:" وأخيراً عرفتُ كيف وصلْتِ عندها."

في الغد، وكَعادتك، لمْ تدعْها تذهب فارغة اليدين؛ وحتى القلبُ فقد كان مَليئا بفواكه الأمَل اليانعة، لكنّها كانت تشْعرُ أنّها قد ينْخرُها دودُ الانتظار ولن يقبل بها حتّى عصفور صام طويلا.

عادت رقيّة ذات مساء، وارتمتْ في حِضنك، فانتشيت بعطرها. مسحتْ بعينيها المشتعلتين اشتياقاً أرجاءَ البيت. لا شيء تغيّر، وقد لا يتغيّر. أخرجتْ من القُفّة قميصاً وجوارب، مدّتهم لكَ وقالتْ:

- كان معي قدْر من النقود فاشتريتُها لك، أرجو أن تكون وفق مقاسك وذوقك.

أعَدْتها إلى القفّة، وقلتَ:"وهل أنا مُعوز؟" ردّت:" لم أكن أقصد هذا. لقد سبق لك أن أعطيتني هدية، وأردت أن أردّ الجميل..." قلت بصوت متلعثم:"إنّها نقود... اكتَسبْتِها من.." ردّت بانفعال لم تعهده فيها من قبل:" من الحَرام؟ قلها. أقسم باللّه إنّها من كدّي وعَرق جَبيني، وكل جسدي أمام أفواه أفران الطّبخ اللاهبة.. "

أدركتَ بمَرارة أنّك نَكَأْتَ جُرحاً لم يندَملْ. كم حَزّ في نفسك جَلْدَ ذلك الجمال الشّامخ والمصلوب على جذع النّزوة القميئة والماحقة. دخلتْ إلى المطبخ، فسمعتها تضع بعض القناني داخل الثلاّجة، فصرختَ:

هل تظنّينَ أنّك في مازاكان (Mazagan) أم في حانة (القرش الأزرق؟)

- لا، أنا في حضْرة الدّلفين الوديع، وقد يمنحني ظهره لينجيَني من الغرق في هذا اليَمّ المكتظّ بالقروش، والذي تُجلّلني ظلماتُه. إني أغرق، أغرق، أغرق، على حدّ قول عبد الحليم حافظ.

غنّت وحدها بعض المقاطع وهي واقفة ثمّ فجلست وقالت:

- سأفرغ أوّل قنّينة وأكتبُ رسالة أضَعها بداخلها، وأرميها في البحر. ستكون" رسالةٌ من فوق الماء". قد يجدها أحدٌ، فيذرف ولو دمعة يتيمة مثلي على حالي، وضياعي القاتل.

قلتَ بنبرة إعجاب:

- تعبير جميل، وصور بديعة..
- سأحاول فعلا تأليف كتاب بعنوان : " رسائل من فوق الماء.". سيكون مجموعة من رسائل كلّ من تعرّفت عليهن خلال هذه المرحلة التي أتخبّط في وحل مستنقعها البغيض. ستوجّه كلّ واحدة منهن رسالة إلى الذي قذف بها في هذا الجحيم، سواء بالتغرير أو بالاغتصاب. لقد ظُلِمْتُ ظلما عظيما. أرجوك، هل ترافقني في أغنية: ظلموني النّاس؟

لم تردد فتناولت سلّتها وأخرجت عدّتها، وأخذت تطرّز بعض المناديل. بدأت تدوزن آلاتك، فأدركتْ أنّك ستستدرجها لترافقك بصوتها في أغنية للأطفال، ففاجأتك بسؤالها:

- لماذا ينجبُ الآباء إذا كانوا غير قادرين على تربية أطفالهم وتعليمهم؟

- يُحبّذ البدوي كثرةَ الإنجاب من أجل أن يكون نسله يدا عاملة مهمّة في أشغاله الفلاحيّة، وقوّة مُهابة في وسطه، والمدينيّ لكي يغبطه أو يحسده الجيران والأقارب على فحولته. أمّا بعضهم فلأنّه يرى أنّ ذلك سنّة الحياة.

- فليحدّد الزّوجان على الأقلّ نسلهما حسب مستواهما المعيشي.

- ربّما بأمر من الحديث: "تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإني مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة."

- هل هذا الحديث صحيح؟ أستغفر الله.

- وهل أنا أبو بكر البيهقي؟ هذا ما تلقيناه على أيدي أستاذة التربية الإسلامية.

- حتّى لو صدّقنا أن الحديث صحيح، ومتّفقٌ عليه، فإنني أرى أن الكثرة التي لا توفّر لنفسها السّكن والطّعام، والدّواء، والكِساء، والتّعليم، فهي كما يقول حديث آخر: "كثرة كغثاء السّيل، لا تضرّ عدوًا ولا تنفع صديقًا."

- أرجّح أنّ الأمر يعود إلى تقاليد لم تعد تقوى على الاستواء ولو على عُكّازة السّلف الصالح. ألا تُحبّينَ الأطفال؟

قالتْ وهي تحدّق إلى سقف الغرفة:

- بَلى، ولكن بشروط.

في العطلة الصيفية، سافرتَ إلى البادية، حيث تحاول المصالحة مع الماضي، وتسترجع ذكريات، لم تستطع أن تجزم يوما إنْ كانت جميلة، أم حزينة، أم هما معاً. ما زال الغموضُ يلفّها كجُلّ الأيّام.

كان الدّوّار خاليا كأنّ ساكنيه هُجّروا؛ لقد سافر أغلبهم إلى مولاي عبد أمْغارْ حيث يقام المهرجان السنويّ للفروسيّة. يُعدّ ذلك عطلة سنوية للفلاّحين، فيفد الزوّار من كلّ فجّ عميق للاستجمام والترويح عن النّفوس، بعد سنة طويلة من الكدّ المُضني.

كنت تحبّ الخيل، فذهبتَ لقضاء يومين أو أكثر لتَستمتع بمنظر الفرسان المتحمّسة للتّنافس بالملابس التّقليدية، والخيول العربية المطهّمة، والسّروج العتيقة والمزركشة بالدّيباج، والبنادق البرّاقة، والمزخرفة بالفضّة المنقوشة.

تتوالى السُّربُ، ويستعرض الفرسان مهاراتهم، وحركاتهم البهلوانيّة أمام المتفرّجين الذين كلّما توفّقتْ سُربةٌ في إطلاق النار دفعة واحدة دون نشاز، صفّقوا للفرسان، ورافقتهم فرقة موسيقية في عودتهم حتّى مكان انطلاقهم. وهم يمرّون من أمامك، كنتَ تتفرّس في قامات الخيول لعلّك تجد أحدهم من سلالة حصان أحد الشعراء الذين تغنوا بخيولهم كعنترة ابن شدّاد، وعليّ ابن أبي طالب، ومالك بن الريب، والمتنبّي، وأبي فراس الحمداني..

شعرتَ بأحد يُربّت على كتفكَ، فالتفتّ. عانقتك رقيّة فاندهشتَ. تبادلتما عبارات التّرحيب والمجاملة، وعرضتْ عليك الجلوس في مقهى، فتبعتها دون توجّس. في ركن قصيّ من المقهى سألتها مع

من أتت." فقالت وهي تضحك: "مع الشّلّة؛ نقطن في خيمة على الشّاطئ. حجٌّ وحاجةٌ." فقلت تمازحها:

- ظننتك تزوّجتِ.
- وأين هم الرّجال؟ (ضاحكة كالعادة)
- ها هم يمرّون في الشارع كالسّيل المتدفّق بكلّ الأعمار والألوان والقامات. اسْتثنيني أنا واختاري من تشائين. ألم يتحرّش بك أحد؟

- ما أكثرهم ! ومنهم من قام بأقبح من ذلك.

يستغلّ أحدهم هذا الزّحام الكثيف فيلتصق بي من الخلف ويحتكّ بردفيّ. أضطرّ لدفع الّذي أمامي ليفسح لي فرجة تخلّصني منه، فيركبني هو الآخر بدوره.

أفكّر هذه الأيّام في الانضمام إلى فرقة موسيقية.

- الفتيان يحلمون بأن يصبحوا محترفي كرة القدم خارج الوطن، والفتيات يسلكن كل السّبل المشروعة وغير المشروعة ليجدن موطئ قدم على منصة الطّرب، هذا الميدان الذي أصبح كغابة يسودها النقيق، والنعيق، والنعيب، بل كحديقة عموميّة بلا سياج، يدخلها كلّ من هبّ ودبّ، مَتى ومن حيث شاء، وقد يكتب له النّجاح في أوّل قفزة على إحدى المنصّات. إنّي أعيب على الشاعر الفرنسي "لافونتين" تضْليلي وأنا طفلٌ، بحكاية الصّرّار والنملة. ولم لا تجرّبين حظّك؟ غنّي وارقصي متى أُتيح لك ذلك؛ فما فاز في زماننا إلاّ الراقصات والعازفون. عذرا للشرفاء.

- وهل لدي اختيارات؟ إنّ كلّ همّي هو العيش

بكرامة وعدم الاستجداء، وأن لا أقضي بقية حياتي عالة على أحد، أو مُلقاة في مستشفى تتوالد فيه الحشرات والجرذان، ويضجّ بروائحه النَّتِنة. قد تُعَجّل بمَوتي عجْرفةُ الأطبّاء وجَشَعهم، وإهْمال الممرّضين وخُبْثهم، ونظراتٌ ذليلة يائسة لمرضى انكسرتْ صحّتهم، وخبا الأمل في أعينهم.

كانتْ تتأمل منظر الشمس التي مالت نحو الغروب، وقد اغرورقت عيناها بالدّموع. تَنهّدتْ وقامتْ ثم ودّعتك.

غابت رقيّة عدّة أشهر، ثمّ هزّها الشوق يوما فعادت. وهي تنزع جلبابها، طفقت تغنّي موّالاً بصوت فيروز: "راح ماضي الحُبّ."، وكأنّما شرعتْ لك باب السؤال على مصراعيه، فقلتَ لها:

- لك صوت ملائكيّ، ألا تجرّبين معي مرّة أخرى غناء تلك القصيدة للأطفال؟

(وهي تضحك) ثنائي: راضية وميلود. لم تعقّب لأنّك لم تفهم ما تقصده، فأضافت:

- ولمَ لا فيلما بعنوان:" على ميعاد مع الأستاذ؟" سيكون مثيرا اجتماعيا،ودينيا، وسياسيا، وقد نُسجن وتتداول قضيّتَنا الوسائلُ السمعية البصرية، وبعض الأحزاب والجمعيات في الداخل والخارج، فنصبح بذلك بطلين.

- لا، إنّني أتكلّم بصدق؛ أنا لست من الباحثين عن الشهرة، بيْد أنّي أرى أن التغيير يجب أن يبدأ من تحت؛ والحلّ في نظري هو الأطفال.

- وما جدوى ذلك؟ لقد أصبحوا هم كذلك
يحفظون الأغاني الشعبية الساقطة وما تحمله من كلمات غريبة تخْدش الرّوح، وتمُّجها الأذن، وتعافها النّفوس الطّاهرة. إنّ هذا يتطلّب حربا ضروسا، فهل أنا وأنتَ من سيخوضانها؟ أعذرني فإنّي أراك حالما. إنّني أغنّي ليس من باب الرفاهية، ولا من باب الشهرة، ولكن لأجعل من ذلك بابا للرّزق.

- لمّا طال غيابكِ، قلتُ في نفسي:"ربّما قد
تزوّجت، وتساءلتُ إن كنتِ ستنكرين معرفتي، يوم ألتقي بك مع زوجك، أم ستجرُئين على معانقتي كما تفعلين، وماذا ستقولين له لو سألك عنّي.

التفتتْ إليك وقد انفرجتْ شفتاها عن ابتسامة عريضة، فضَحَتْ ثَلْمَ ثنِيَّتيْها، وفي العينين دهشة بحجم السّؤال المُباغت، سألتك:

- وماذا تُسمّي أنتَ العلاقة التي بيننا؟
تعرف أنّك لن تردّ، أو ستراوغ، فأعفتك، وقالت:

- بعد عودتي من مولاي عبد الله، شاءت
الصُّدف أن أحضر إلى عرس. كان يغنّي في الحفل شابّان، فأدركتُ أنّ الغناء لا يروق للعُربان إلا بصوت أنثى. تجرّأتُ ورَجوتُ صاحب الكمنجة أن أغنّي معهما فلم يتردّد. أعجب المدعوون بصوتي وأدائي، وصفّقوا كثيرا، فكانت الأوراق الماليّة تُعلّق على جبهتي، أو في شعري، أو في حزامي، وبعضها تُرمى عند قدميّ. كنتُ أظنّ أنني في حلم. حتّى الشابّان غبطاني لمّا شعرا أنني خطفتُ منهما الأضواء، فعرضا عليّ الانضمام إليهما.

اشتغلتُ معهما كنملة خلال الصيف، ولمّا شعرتُ أنّني أستطيع الاستقلال بنفسي، اكتريتُ منزلا. وحيث أنّني دخلتُ ميدان الفنّ (ضحكتْ)، وأصبحتُ سيّدة محترمة، اعتزلت حرفة العفَن، وعفا الله عمّا سلف. أتعلم أنّ البيضاويّة استاءت منّي كثيرا بعدما هجرتُ وكرها؟

- ذلك طبيعي، إلى أن تجد من يسدّ مَسدّكِ.

التفتّ إلى أوراقك لتعيد قراءة بعض ما كتبت؛ تداعى بيتان آخران ناضجان كتفاحة نيوتن. تساءلتَ إن كان نيوتن هو من حرّك غصن الشجرة، أم الريح، أم قد جفّ حبْلُ سُرّة التفّاحة بعدما بلغت النضج فسقطتْ. ما أعجبَ تبجّح بعض الكتّاب. يقول لك أحدهم إنّه كتب رواية في شهر. ويدّعي آخر أنّه كان نائما فاستيقظ في الهزيع الأخير من الليل وكتبَ قصيدة. إنّهم ينسون المخاض الذي يعانيه الكاتب منذ أن تسقط بذرة النص في ذهنه، حتّى يصبح جنينا، وعناء البحث والتقصّي، وقلق التردّد، والحذف، والتشذيب، والتقديم والتأخير، والقراءات المتكرّرة بعين قارئ مفترض. لم تدر متى قلت لرقيّة:

- لو تُعدّين يوما بُرْمةً من الحَريرَة.
- أبْرعُ في طهْوِها بشهادة كلٍّ من تذوّقها من

يدي. يقال إنّها الوجبة التي تُخلط بها النّساء موادّ تجعل رجالهن طوْع أيديهنّ، فاقدي السلطة والإرادة، فخشيتُ إن أنا أعددتُها لك يوما تظنّ أنّني مثلهنّ.

- هل تؤمنين بالسّحْر؟

- لو كان السّحر من العلوم الحقّة لحكم السّحَرةُ العالمَ وتفنّنوا في مسخنا وأغرقونا في صراعاتهم؛ ولكنني أومن بتأثير عين الحسود

وأخشاها. أصبحتُ كلّما ارتديتُ لباسا أو حذاء جديدا ألطّخه ببقعة صغيرة، لكي تركّز عين الحسود على الوسخ لا على هيأتي. صدّقْني، إنّني أخشى حتّى من عيني. أحياناً عندما أشعر بغبطة ورضا عن نفسي، أعرف أنّني سأصاب بسوء أو شرّ.

- يا للمِسْكينة ! أَلِهذا الحدّ؟ إنها من بعض الأفكار التي صدّقْناها وترسّبتْ بعقولنا فأصبحت كمعتقدات، لا نستطيع التخلص منها حتّى لو كنّا مُثقفّين؛ وحيث أنّ نسبة احتمالية صِدْقها تبدو لنا كبيرة، فقد يساعد العامل النفسي على تحقّقها. دعينا من هذا وخَبّريني إن كانت حريرة العونية، ما زالتْ لم تنضج.

- بل كادتْ أن تَبْردَ. لمّا آنستُ منها صوتاً بأوتار رخيمة، وصِدْقا في التّعبير، وبراعة في تحريك جسدها الدُّكّالي، عرضت عليها الاشتغال معنا ضمْن المجموعة. لقد حبا الله راضية صوتاً جميلا، أغبطُها عليه. لا يحتاج إلى مكبّر الصوت، ولا حتّى إلى آلات ترافقها؛ هي أوركسترا لوحدها. عندما تصدح بالغناء، تشعر كأنّه صوتُ أمازيغيّة ينبعث من جذور الأرومة الأولى، وتردّده السفوح والوديان، فيصعد نحو قِمم الأطلس، ثمّ يتهاطل روْحاً وسكينةً وبلسماً على الأرواح المكلومة. كان والدها الأشهب يكلّفها بالقيام بأشغال في البادية لا يقوم بها إلا الذّكور. أمّا النشاط الذي يستنزف كلّ وقتها فهو الرَّعيُ. لم تطأ قدماها المدرسة قطّ. تتأسّف أحيانا على أنها لم تنل حظّها من الدراسة، فأردّ عليها لأسلّيَها:" لكلّ منّا قدره ونصيبه من هذه الحياة. ألا ترينَ أنّ حتّى بعض اللواتي حصلْن على شهادات جامعية أُصِبن بخيبة أمل ذريعة، ويعشن في ضياعٍ مُتلف للروح ومنهِك للجسد؟" تضحك وتقول وقد اِحمرّ وجهها:" ولكن، ألا ترين أنّ مومِسا متعلّمة أحسن وأرقى من أخرى أمّية؟" راضية لا تدخّنُ ولا تشرب؛ ذات ذاكرة قويّة، تحفظ كثيرا من الأغاني الشعبية،

وتردّدها بين الهضاب التي ترعى فيها شياهَهم. فُتنتْ بعزف ميلود، فكانت تحسن التمَشّي مع النغَم، وتنسجم معه في الإيقاع بالنقر على المدْلجة التي تحمل فيها الماء، وترافقه في الغناء. كلّما انفرد بها خلف السّدرة، وغنّتْ قبّلها. كانت تعتبر حركته بريئة، كتعبير على شكره لها وإعجابا بصوتها. وعدَها بتسجيل شريط تحت عنوان:" ثنائي ميلود وراضية" اعترضتْ قائلة:" لا، بل راضية وميلود." وضحكا: هي على إفلاحهما في العثور على اسم لمشروعهما، وهو على سذاجتها. لمّا تأكّد أنّ رمّانها قد تشقّقَ، وحان أوان قطفه، استفرد بها ذات ظهيرة بعدما غفت شياهَهما تلوك سيرتهما، ونام القوس على صدر الكمنجة.

في لقاءات متكرّرة، طاف ميلود على الناضج والفجّ من خوخ العونيّة ورمّانها حتّى بَشم، فحمل كمنْجته واختفى.

ذات مساءٍ، التقيتَ رقية صدفة في الشارع، فدعوتها للعشاء معك. حدّقتْ إليك طويلا كأنّها لمْ تصدّق. ما أن ابتعدتَ حتّى تناوشك الندم. لطالما اتخذتَ قرارات عشوائية دون أن تعرف الدافع أو الغاية. بيد ابتعْتَ بمزاج رائقٍ كلّ ما يلزمه حسن الضيافة.

كانت تنتظر بعيدا عن باب المنزل. دخلتما فقلتَ لها:

- أنتِ في ضيافة الفقيه.

وهي تحمل المشتريات إلى المطبخ، قالتْ:

- أخشى أن تكون كضيافة عزيز أو الفرّوج.
- لقد سمعنا ليلة عزيز، فمن الفرّوج؟

خلعت جلبابها وأدخلت المشتريات إلى المطبخ، وقالت:

- بعد اختفاء ميلود، أصبحَ الأشهبُ، والد راضية كلّما اضطرّ إلى الخروج، يمشي مطأطأ الرأس، مُجلّله بقُبّه. يتجنّب اللقاء بالسكّان، والتحدّث إليهم. ورغم أنّه لا يكلّمهم فإنّه يرى في أعينهم ما يرشح من أنفسهم الخبيثة ومكر السؤال المضمر. عاد ذات عشيّة من المرعى، وهو يرتعش، وقد أصيب بحمّى شديدة. تشتدّ حرارة جسمه، فيتصبّب عرقا باردا، ثمّ يشعر كأنّه وُضعَ في ثلاّجة، فيطلب منهم أن يدثّروه بكلّ ما يملكونه من أغطية ولُحفٍ. يغرق في غيبوبة يستفيق منها وهو يكلّم الموتى. لمّا قضى الأشهب، أصبحت خديجة تنظر إلى ابنتها راضية كأنّها سببُ موت أبيها. اشتدّ بينهما الخصام، وأصبحتا تتجادلان حدّ الاشتباك بالأيدي لأتفه الأسباب. خشيت إن هي بقيت مع أمّها فقد تقتل إحداهما الأخرى، فخرجتْ ذات فجر تقصد المدينة، وهي تبكي.

وقفت راضية جنب الطّريق المعبّد تنتظر مرورَ حافلة أو سيارة أجرة. أوقف بجانبها درّاجَته النّارية شابّ طلْق المحيّا، يتدفّق مرحا، وتقدّم نحوها مبتسما. شرع في مغازلتها، واقترح عليها أن يحملها إلى وجهتها. تردّدت ولكنها خافت إن هي بقيت فستستيقظ أمّها وتشعر بغيابها فتخرج باحثة عنها. أخيرا اتجهتْ نحو الدرّاجة النارية، فأردفها وانطلق كنسْر يحلّق في الجوّ وهو يطبق على طريدته بِمَخالبه.

بعد قليل، انعطف إلى طريق رمليّ تحفّه الدّوالي، وكروم التين، فانتبهتْ إليه وسألتْه إلى أين هما ذاهبان. طمأنها، و قال لها إنهما سيفطران، ثمّ يستأنفان السّفر.

قالتْ لي مرّة:

- لقد حبسني عليٌّ في الغرفة الوحيدة في الخلاء، وسط البساتين. كان يقضي النّهار في حراسة بستانهم، ولا يتركني إلاّ إذا ذهب ليُحضر الأكل.

زاره ذات ليلة بعض رفقائه، يحملون آلاتٍ موسيقيةً، فجلسوا يحتسون ماء الحياة، بينما كنت أتجرع جام الذّلّ والهوان. بين الفينة والأخرى، يملأ أحدهم كأساً ويمدّها لي فأرفض. غنّوا حتّى تَعبوا، فجمعوا آلاتهم وغادروا ومعهم عليّ إلاّ صاحب الكمنجة. ناديت عليّا، فأجابني أنّ ذاك هو عريس اللّيلة.

توالت سهراتهم اللّيليّة، وكلّ ليلة يستفرد بي أحدهم على التّوالي، حتّى أصبحتُ منهوكة الجسد، خائرة القوى، مشتّتة الذّهن، وفاقدة الإرادة؛ لا أفكّر إلاّ في الغد وما يجب عليّ فعله لأخلّص نفسي من ذلك الجحيم. ذات ظهيرة، ذهب ليحضر الأكل من منزلهم، فخرجت مسرعة، واختبأت تحت جدائل دالية، كنت أنتظر حتّى يجنّ اللّيل لأهرب. عاد عليٌّ فلم يجدني. خرج وحام حول الغرفة، كنت أراه وأسمعه يتحدّث على الهاتف. بعدئذ سمعتُ جلبَةً ونباحَ كلب. كلّما اقتربوا منّي اتضحتْ أصواتهم. كانوا يحرّكون، أو يضربون بعِصيّهم جدائل كلّ دالية. توقّف الكلب بجانبي مُكشّراً عن أنيابه، وبدأ ينبح. حاموا حولي وهم يضبحون كضباع حول طريدة.

سكتت رقيّة، فسألتها مازِحاً إن كان ذلك فصل، أم مشهد من مسرحية راضية. قطعتْ تثاؤَبَها كما قطعت الخيط الحريري بأسنانها وسألتك متعجّبة إن كنتَ تنصتُ إلى حديثها باهتمام بالغ، أم لإرضائها فقط.

لم تجبها وقمت لتنام.

- لمّا استيقظتَ متأخّرا عل غير عادتك، كانت رقيّة قد قامت بأشغال البيت وهيّأت لك طعاميّ الفطور والغذاء، وغادرت البيت.

بينما كانت رقيّة منشغلة بتطريز مناديلها، كنتَ تحاول لململة الأبيات المبعثرة، فندّت عنك ضحكة. التفتت إليك دون أن تسألك، ثمّ انهمكت في شغلها. لقد أفلحت أخيرا في إيجاد عنوان للقصيدة قبل أن تتمّها: "الورقاء". تركت الأبيات وتمدّدت. بعد لآي سألتها:" وماذا في السلّة عن الشلة، أو ما بقي من مسلسل العونية؟" قالت دون أن ترفع عينيها عن الإبراة:

- قالت لي العونية:" بعدما وجدوني منبطحة على بطني ، أمرني عليّ بالوقوف. ما كدتُ أن أستقيم واقفة حتّى تلقّيتُ لَكْمةً على وجهي من أحدهم، أسقطتني أرضاً. قبض آخر على كتفيّ ليوقفني، فصرختُ بأعْلى صوتي. فانهالتْ عليَّ الركلاتُ واللّكمات، حتّى أُغميَ علَيَّ.

استيقظتُ ليلا، فَرأيْته يجلس بجانبي وهو يُقّطّع بعضَ عُشب القنّب الهندي. قام وأتى لي بطبَقٍ من الفاصوليا، وبعض العنب والتّين، وقال لي منفعلا وبلهجة آمرةً:"خذي نصيبك من العشاء."

قلتُ له بصوت مبحوح، كحشرجة مَن يلفظ أنفاسه الأخيرة، إنّني حامل، لعلّه يشفق علَيّ، ويتركني أرحل.

قهقهَ ووضعَ السّكّين فوق اللّوح، ثمّ وقف وقال:

- أتريدين أن تستغبيني؟ خذي عشاءك الأخير؛ فقد تجدينهم هناك قد تعشّوا وناموا.

- من هم؟
- أجدادك المتوفّون.

أقسمتُ له إنّني كذبت عليه، لكي يُخْلي سبيلي. لم يصدّق، وانحنى عليّ وجذبني من شَعري، وجرّني إلى الخارج. جرّدني من ملابسي، وأخذ يَكيل الرّكلات إلى بطني، لعلّه يجهضني. يجرّني في جيئة وذهاب، من ذراعي أو رجلي، أو شعري، فوق الأشواك التي كانت تنغرز في جسمي كالإبر. توقّف لحظة وهو يتنفّس بصعوبة، وغمغم بكلام لم أفهمه، لأنّ أنفاسه انقطعَت، أو لأنّ لا جنينَ سَقَط.

في الغد، كنتُ نائمة أفكّر في مصيري، ووددتُ لو وجدتُ في تلك اللّحظة وسيلة للانتحار، فسمعتُ صوت سيّارة تقترب. وقف عليّ بالباب وأمرني أن أحمل حقيبتي. خرجت وركبت بجانبه، ولا أحد تكلّم أثناء الطّريق. توقّفتِ السّيّارة أمام أحد البيوت، فوضع في يدي أوراقا مالية، وطلب منّي أن أسامحه. طرق باباً ثم أشار إليّ بالنّزول. خرجت البيضاوية، فدفعني نحوها، وقال:" ها هي الأمانة." تطلّعتْ إليّ من أخمص قدمي إلى قنّة رأسي، وقالت:" بضاعة طريّة، مازالت تفوح منها رائحة التّربة التي نبتت فيها. مَن الخسيسُ الذي طاوعته نفسه الخبيثة أن تطال يدَه كلّ هذا البهاء؟" ردّ عليها:" إنّها حمامة غير أليفة. فاحكمي قفل القفص."

أدمنتَ على صحبة رقيّة؛ فهل يزعج أحدا أن تشنّف مسامعك بما تُحسن أداءَهُ من الأغاني، وأنت تعزف على آلتك، أو تروي لك طرائفَ و مشاهد مُضْحكة، مبكيّة، وتعدّ لك أشهى الوجبات؟ سألتكَ مرّة مَن الماهر منكما في الطّبخ، أنت أم هي، فأجبْتَها دون تردّد أنّها هي. أخبرتك أنّها تتدرّب لتُصحب طبّاخة في الأعراس، والمآتم،

والحفلات. أضافتْ بنبرةٍ من الفخر أنّ هذه حرفة لا تَبور؛ حتّى إذا لم تَغْتني منها، فإنّها تضمن لها العيش في كفاف.

غابتْ عدّة أسابيع، ثمّ ذات مساء، وأنت تعود من العمل وجدتها تنتظرك. كانتْ تحمل حقيبتها كالعادة وقفّة. حطّتهما في المطبخ، وفتحت الثّلاجة ورتّبتْ بداخلها عدّة قناني من البيرّة. استنكرتَ فعلَها، وأقْسمتَ أنّك لو لمْ تخش الفضيحة لرميتَ القناني في الشّارع. كنت شاردا حينما خرجتْ من المطبخ، وهي تحكّ أنفها، وعيناها دامعتان، فسألتها ما الّذي يبكيها. ضحكتْ بعدما آنستْ منك لُطفا، وقالتْ:

- أنتَ والبصَلُ. أنا ما أزورك لأحتال عليك،
وأنت تعي ذلك جيّداً، إنّما لأنّني فقدتُ الصّلة بالأهل والأقارب، وأشعر أنّك واحد منهم، وألاحنى عليّ؛ أليس لك أنت كذلك نفس الإحساس؟

- بلى، فكلّنا من نسل آدم. أنا أخوكِ.
ضحكتْ وقالتْ:

- أنت أختي. ألا تكون مثل أحمد في رواية طفل
الرّمال، للطّاهر بن جلون، التي سبقَ أن قصصتها عليّ؟

لم تُجبها فشعرتْ كأنّها نكأت جرحا قديما، فاعتذرت، وقالتْ كأنّها تقلب الصفحة:

- تصوّرْ كيف كان سيكون حال البشرية، لو لم
يعصَ أبونا آدم ربّه.

- لولا التفّاحة، لبقيا في الجنّة، وأنجبا وتكاثر

نسلهما بسرعة، لأنّه لن تكون هناك أمراض، وصراعات إيديولوجية، وحروب على الحدود والثّروات الطّبيعية، وهجرات كبرى، وتشريد. لن تكون هناك الملل والنّحَل، حيث لا ديانات، ولا مذاهب، و لا طوائف، ولا عقائد.. لن يحتاج بنو آدم للنّفط، والمناجم وكلّ هذه التّرسانات من الأسلحة الأتوماتيكية، والبكترْيولوجية، والنّوويّة. سيكونون بجانب الربّ هناك. هناك، حيث لن يحتاجوا إلى سبر أغوار البحار، أو غزو الفضاء للبحث عن كواكب أخرى يستطيعون العيش عليها، إذا ما ضاقت بهم الأرض، أو لمعرفة أصل نشأة الكون. لن يضطر المرء للعمل ليقتات، ويستمرّ في الحياة.

أعجبتها سعة خيالك فردّت وهي تضحك:

- ولماذا لم يكن الأمر كذلك؟ أذلك عزيز على مولانا الحكيم، العليم، الرؤوف، الرحيم؟

- "ليبلوكم أيكم أحسن عملا."
- صدق الله العظيم. لو كنّا هناك لكان الشّيطان عاطلا.

- لن يكون هناك شيطان، لأنّ الله لا يخلق شيئا عبثا؛ إذ أنّه لن يحتاجه كعلّة ليغوي الإنسان.

- ولم عصِي الله، وتوعّد بأن يغوينا؟
- إنّ في ذلك لحكمة ..

قامت لتتفقّد القِدْر، وتأخّرتْ فسألتها إن كانت الوجبة قد احترقتْ. خرجتْ وردّت إنّها هي التي تحترق، ونارها لا تطفئها إلا تلك

وأشارت إلى قنّينة من البيرّة كانت تحملها. شزرتَ إليها، فجلستْ في الطّرف الآخر من الغرفة.

شعرتْ رقيّة بالحرارة، فأخذت تخلع ملابسها قطعة، قطعة. بعدما طوّحتْ رياحُ النّشوة بما تَبقّى من خَفَرها، تخلّصتْ من كلّ شيء إلاّ من قميص لازوَرديّ شفّاف. خَجِلَ الذّكرُ ولم تخْجَل الأنثى. غضَضْتَ الطّرْفَ. هل اسْتحيَيْتَ أمْ انْحنيْتَ للجمال لأنّك رأيْتَ فيه سرّ الخالق؟ أحْضرتْ لك العودَ وقالتْ كأنّها إحدى شخصيات فيلم سينمائي: " قسّمْ يا أستاذ !" وكمن يسْتعرضُ أسلحَتَه الفتّاكة، انْطلقتْ في ميْسةٍ راقصة. توقفتْ ثمّ قالتْ: "أنا روْضة تطْفح كلّ فصْلٍ بالأزهار العَطرة، والأشْجار المُثمرة." ثم أضافتْ وهي تشيرُ إلى أعضاء من جسدها المنحوت كآلهة الرّومان:" تمَلّ الورودَ، والتفّاحَ، والجوْز، والموْز، واللّوْز، والرّمّان، وعناقيد العنب.."

غَمْغَمْتَ:" كلّ روْضَة لا ناطور لها، تعيثُ الثّعالِبُ فيها فَساداً.." لم تسْمعكَ أو لم تفهَم . ثم سألتها:"لماذا تشربين، وأنت تعرفين ما يفعله فيك السّكْر؟"

نظرتْ إليك بعينين ناعستين، وقالتْ بانفعال كأنّها صَحتْ:

- لماذا أشْرَبُ؟ لأنْسى كلّ شيء حتّى نفسي، وحُلْمَ والدي الذي لمْ يتحَقق؛ قضى ولمّا تُبَرْعمْ زهرةُ ربيعي العاشِر.. أشْربُ لأنسى الزّاهية التي أهملتني لأحزاني، وارتمت في حضن خَليلها، بعد أسابيع قليلة من موت والدي.. أشرب لأنسى اللّيالي الّتي احتجتُ فيها إلى حضنها، فمَنحَته إلى (حبيبها) الذي كان يضاجعها في نفس الغرفة التي أنام فيها معها.. أشْرَبُ لأنسى ما تحمّلتُه من شُذُوذ مَكْبوتين، يُفرغون صَديدَ ساديَتهم المُستعرة على جرْح روحي النغّار.. أشربُ

لتكون لي الجرأة على الجهْر بما لم أبُحْ به وأنا صاحِيةٌ أتجرّع الذّلّ، والمَهانة والذّعر الفظيع.. أشْربُ إرْضاءً لفاسق خؤون لا تروقُ له المُدام إلا من يد أنثى.. وسأشربُ ما بقيَ في الثّلاّجةً الآن لكي لا أتْرُكه لك لأنك ذو مبادئ..

قاطعتها:" لن أتركك تدخلين مرّة أخرى حتّى أتأكّد كالجمْركي مما تحملينه في حقيبتك"، ثمّ ذَهبْتَ لتنامَ.

استيقظتَ فلم تجدها، ورأيتَ فوق المائدة طعام الفطور، ورزمة من الأوراق المالية. أودعْتها دون أن تعدّها مع ما ادّخرتْهُ عندك، وتساءلتَ مع نفسك وأنت تبتسم إن كنتَ في عرفها "قوّادا"، أو مدير بنكِ.

عندما غابت عنك طويلا، ظننتَ أنّها غضبتْ منك. لكنّك كنت تدرك أنّ العلاقات الإنسانية ليست ميكانيكية، إذ كلّما وقع عطب أصلحناه في اللّحظة ذاتها، ثم استأنفنا المسير. إذا ما حصل خصام أو شنآن بين شخصين، فيلزم وقت طويل لتعود المياه إلى مجاريها. هكذا فكّرتَ، فارتأيتَ أن تترك لها مساحة من الوقت لتُرمّم ما تداعى من آصرة الصّداقة بينكما.

ذات صباح وأنت تعود من عند البقّال، رأيتَها مقبلة. دخلتما، وخلف الباب أخذتَ حقيبتها وفتحتها لتفتّشها. لم تجد إلاّ ملابس النوم، وشِبْشباً، وبعض الفواكه والحلويات. جلستما حول المائدة فقالت لك بصوت شجيّ:

- لقد طلّقتُ الغناء؛ هذا العمل فيه فخاخ. كنا

في حفل راق، ونحن نغنّي، صعد شاب إلى المنصة وعلّق ورقة مالية على صدر راضية وقبّلها، فصفعته، ردّ عليها الصفعة، فاشتبك معه أحد الحراس. تدخّل أصدقاء الشاب فكاد الحفل أن يتحول إلى مأتم.

ينتابُني شعورُ مَن طُردَ من العمل، ويعاودني اليأس والإحباط، وتسكنني كآبة كحلاء كالّتي جلّلتْ روحي يوم فُصلتُ عن الدّراسة. من حسن حظّي أنني تعلّمت الطّبخ، وإلاّ اضطرّتني الظّروف للعودة إلى وكر البيضاوية، كما فعلت العونية. ألا ترى معي أنّ الحياة تنْشزِ وتحنّ، تمُنّ وتضِنّ، تسْلو وتفتقد، تعانق تارة وأحيانا تعَضّ. ضحكتَ وقلت لها:" أرني أثار عضّاتها." ردّت:"ليتها تعَضُّ الجسد، إنّها تعَضُّ الرّوح، وجراحها لا تندمل. ألا ترى رأيي؟"

في الغد، قبلَ أَن تودّعكَ، حاولتَ أن تدسّ ورقة مالية في يدها، فأبعدتها وضربتْ بها على عضُدِها، وقالتْ بافتخار:" اللّهمّ بارك في ساعِدي."

قلتَ بفتور، بعد تردّد:

- عودي كما اللّقالق حين تحنّ إلي الوكر القديم
لترمّمه، وتدلق قهقهة على تفاهة المحطات التي مرّت بها..

- إي والله، لترمّمه وتبيضَ وتفرّخَ فيه.
سأعود؛ سأعود كما كنتُ أفعل كُلّما حَنَنْتُ إلى عزْف راقٍ، وقلبٍ رحيم، وأذنٍ صاغية، وروح متسامحة لم آنس منها شيئا من أحد أقربائي.

أقفلتَ الباب كمن أنزل السّتار على مشهد من مسرحيّة دراميّة تدور فصولها على ركح هذه المدينة السّعيدة بحالها. في حركة

تلقائية أسرعتَ لتكتب بيتا طفا على سطح تفكيرك المتدفّق قبل أن تنساه.

عندما تلمع في سماء خيالك أول إشراقة للقصيدة، فإنّ فكرك يصبح كحاسوب دفعتَ به للبحث عن كلّ ما يمُتّ إلى الموضوع بِصلة، أو ككلب الصّيّاد، كلّما اصطاد طريدة أتى بها إليه، ولو كان عنه لاهِيا.

لقد راكمتْ رقيّة كثيرا من الألغام بسفح روحك، ويكفي أن تشعل رأس الفتيل، كي تنفجر القصيدة وتتدفّق حِمماً حارقة، أو جداول مترقرقة. لمَ لا ترتقْ حكايات شلّتها لتنْسج منها قماطاً لجنينك الّذي يتخبّط في رحم معاناتك، ويأبى الخروج؟ ربما لم يزل جنسه لم يتحدّد، أو أنّه سيكون خنثى.

علمْتَ من رقيّة أنّ العونيّة ندمتْ على عودتها عند البيضاويّة، لأنّها فرضتْ عليها شروطا قاسية. بعد شهور لم تعد تتحمّل كغيرها مدى استغلال البيضاوية الفاحش. كنّ يشجبنَ تصرّفاتها، وينعتنها بأوصاف حقيرة، ولكن لا إحداهنّ تملك الجرأة على مصارحتها.

بعد لأي، اهتدت راضية إلى طريقة سلِسَة لتحفيزهنّ على الانتفاضة ضدّ البيضاوية. كلّما استفردتْ بإحداهنّ حاولتْ أن تُقنعها لتكوين مجموعة تدافع عن حقوقهنّ.

سألتها إحداهن حديثة العهد بالمهنة عمّا يفعلنه إذا ما رفضت بديعة تلبية مطالبهن، فردّت عليها:" لا بد من التضحية؛ قد نجوع، ونتشرّد، ولكن إذا تشبّثنا بمطالبنا فسننجح في انتزاعها من بديعة."

لمّا شعرتْ العونية أنّ الأغلبية معها، عرضتْ على بديعة مطالبهنّ الجديدة، فصرخت في وجهها:

- من أنتنّ؟ إنّكنّ لا شيء دوني. ما أنتنّ إلاّ حثالة، نخالة لا تقبل بها حتّى جياع الحيوانات.. نفاية..

أخرسهنّ صوتها، وانفعالها، لكنّهنّ أدركن أنّها تقرأ فاتحة الإفلاس على روح شركتها. ردّت العونيّة بجرأة فاجأت البيضاوية وصُوَيْحباتها، ويداها ترتعشان:

- إذا كنّا نفاية، فكم من مزبلة في هذا الوطن العزيز؟ بل لو لم نكن نحن لما كنتِ أنت. أنت لست إلا وسيطة، ونحن نمارس الحرفة جهارا نهارا. فلمَ نخشى الشبهات، أو الفضيحة، ونحن نسبح في مستنقعها، حتّى بدون تُبّان.

بقيَت البيضاوية مذهولةً، وبعد صمْت طويل، قالت بهدوء أدهشهنّ بقدر ما منح راضية نشوة نصر:

- أمْمم. دروس رقيّة؛ يا لك من تلميذة نجيبة !

عَلقَ النّقاشُ في رَحِم التّعنّت والعناد، فقادتِ راضية ثورة "الزنابق"، وشققْنَ عصا الطّاعة. اكْتريْنَ دارةً لإدارَة (المشروع: شركة مجهولة الاسم) لحِسابهنّ الخاصّ، ترَقّتْ فيها العونيّة إلى درجة" قوّادة" بالإجْماع.

خلالَ شُهور نما مشْروعُ راضية، فجفّف مساربَ بائعات المُتْعة، وأُصيبتْ تجارةُ بعض مُنافِساتها بالكساد. كل الطّرق مشْروعة للدّفاع على المَجال الحيَويّ: وِشايةٌ عبْرَ الهاتِفِ المَحْمولِ، أسفرتْ عن ضبط العونية في سَهْرة ماجِنة. سنتان خلْف القُضْبان ستكونان

كافيتين لتَتمرّسَ العونية، وتُتْقنَ سرّ المِهْنة، و توسّع شبكة علاقاتها، وتخرج بفريق متدرّب. لا إصْلاح في السّجون، ولا توبة نصوح، بل تكوينٌ مُسْتمرّ للتفنّن في ارتكاب الجرائم، ومخاتلة القوانين. عرّابون يقدّمون دروسا بالمجّان في كل أنْواع الإجْرام والفساد، ويحفظون فصول قانون الإجرام، كما أصبحوا يعرفون أسماء القضاة ونزاهة بعضهم، وجور آخرين، ويفصحون للمجرم عن مدّة عقوبته السجنية، قبل أن ينطق بها القاضي. بسبب الظلم، وسوء المعاملة، وخنق الحرّيات، والرشوة والفساد، داخل الزنزانات يحتدّ الحقد، ويعصر اليأس النفوس، فتولد الرّغبة في الانتقام عندما يعودون إلى الاختلاط بمجتمع تركبه الفوضى.

أقبلت رقيّة ذات مساء تحمل قفّة، وما أن دخلتْ حتّى أخذتَها منها وفتَحتَها، لترى إن كانت تحمل خمرا، ففاحت منها روائح شهيّة وزكيّة. ضحكتْ ثمّ قالت إنّها من أغلى وألذّ الحلويات التي تُقدّم في الأعراس والحفلات، وأحبّتْ أنْ تُذيقك من كلّ أشكالها، فشكرتَها. أثناء الأكل سألتك عن رصيدها. فسألتها باستغراب:

- ألا تعدّين ما تودعينه عندي؟
- أحيانا أنسى..
- لقد أصبح مبلغاً مهمّا وهو ما جعلني منذ أيّام

أُفكّر في تشجيعك على فتح دكّان لبيع الخبز والحلويات، والحساء، والحريرة، والإسفنج، والفطائر... هؤلاء القوم لا يهتمّون إلا بالأكل واللباس.

ضحكتْ وقالت:"الأكل، والجنس، واللباس؛ الثالوث المنشود.." شعّ الفرح من عينيها، كأنّك نَفَخْتَ في آخر جذوة بين الرّماد المتراكم في

روحها المقرورة. التفتتْ إليك وتنهّدت وقد خبا النّور فجأة في مقلتيها ثم أضافتْ:

- ألا ترى أن مثل هذه الدّكاكين أصبحت منتشرة كالفطر في كل منعطف، وفي كل زاوية؟ وحتّى على الأرصفة عربات للوجبات السريعة.

- أجلْ، ولكن ألا تنتبهين إلى عقلية النّاس؟ كلّما فتح أحد محلاّ جديدا، من بائع الإسفنج، حتّى المتخصّص في مرض ما، ينكبّون عليه إمّا نكاية في القديم أو ليجرّبوا الجديد. فإذا ما ظلّ أمينا، وماهرا، مستجيبا لأذواق زبائنه، منصتاً لرغباتهم، ويسعى إلى تلبية حاجياتهم بحسن التّصرّف وتطوير عمله، والعمل باستراتيجية: تأجيل دفع الحساب في حالة العسر، فإنّ مشروعه ينجح، وإلاّ انفضّوا من حوله، وعاش يصارع الإفلاس، كالسيّد كورنِيْن في (رسائل من طاحونتي) لألفونس ضوضي.

- ملاحظة ذكيّة، ولكن كيف لي أن أقوم بكل ذلك؟

- سأكون شريكك في المشروع.(فيفْتي، فيفْتي..) سنجهّزه بأحدث الآلات، وأثاث نفيس ومريح وغير رائج.

كانت تطأطئ رأسها وهي تفرك أصابع يديها، كأنّها تهندس للمشروع.

سهرتما طويلا، ولا حديث إلا عن شغلها الجديد. كم كانت تبدو لك ذكيّة وهي تتكلم بمنطق خبير.

زارتك رقيّة يوما لتزفّ إليك بُشرى توَفّقها في لملمة فريق جادّ وأمين، للعمل معها على إنجاح مشروعها. وأنتما تعدّان المبلغ، انبهرتْ، لأنّها، ربّما لم تكن تعدّ ما توفّره لثقتها بك، فسألتها دون تريّثٍ:

- أريد مشاركتك، ولكن في الحلال. هلْ من بين هذه النقود ما حصلتِ عليه من الحرام؟

- وما الفرق بين الحلال والحرام؟
- الحلال هو ما أحلّه الله، والحرام غير ذلك.
- ألا ترى رأيي أن كلّ شيء في هذه الحياة نسبي، حتّى الحقيقة؟

- والخلاصة؟
- تأتي منك عندما تُجيبني على هذه الحالة:

تاجر خمور راكم ثروات طائلة. الكلّ يعرف أن ذلك حرام. لكنّه ذهبَ إلى الحجّ، وبنى مسجدا يذكر فيه اسم الله، وأصبحت محلاّته التّجارية العديدة لبيع الحلال، مصدر رزق لعدّة عائلات أربابها يشتغلون فيها. أفتني في أمري، يا سيّدي الفقيه. يا أستاذ، أليس الله غفّارا رحيما؟ تزكيةً لمالي سأقدّم وجبات لوجه الله إلى المشرّدين، والمعوزين، وأساعد الجمعيات الخيرية، إذا ما ازدهر مشروعي. لمْ تسألني عن أفراد الطّاقم؛ سأقوم أنا بالطّهي، وسيتكلّف بإعداد الإسفنج والفطائر والأرغفة فتىً نشيط، وخفيف الظّلّ اسمه مبارك، والنّادل هو مُراد ابن جارتنا، بينما أبدتْ بديعة استعدادها لتسهر على صندوق المداخيل..

قاطعتّها بصوت ملؤه الاستغراب والحزن:

- والعونية؟ ألم تخطر ببالك ولو لحظة؟
ردّت وهي تضحك:

- لقد أصبحتْ موظّفة، من بين عاملات النظافة في قصر البلدية. أُشفقُ أكثر على البيضاوية لأنّني لا أتنكّر للصّديقات والأصدقاء. لقد هرمتْ قبل الأوان؛ بُحّ صوتها، واسودّ إهابها كفرخة مشويّة، وغار قذالها. عندما بارتْ تجارتُها، ولم يبق من زبائنها إلاّ نخبة من (المحترمين، والمحترمات) الذين يعملون بحديث:" إذا ابتليتم فاستتروا." كنتُ أزورها وقفّتي مليئة، وأنفحُها ببعض المال.

قلت وأنت تدخل غرفة النّوم:

- اللّهم قيّضْ لنا حُسن الخاتمة.
ذات ليلة، بينما كانت رقية تخيط أحد القمصان، لاحظتها تنظر إليك طويلا، ثم فاجأتك بسؤال خلخل كينونتك:"هل أنت رجلٌ؟" قلتَ وأصابعك تعبت بلحيتك: "وهل تشكّين في ذلك؟"

- هل سبق لك أن زنَيت؟
- كثيرا، وما أزل.
تَملّكها التّعجّب فأربكتكَ بمتوالية من الأسئلة عسى أن تجيبها ولو على واحدة، تكون ثقبا في جدار صمتك، لينبجس منه خيط ضوء من سرّك الملفوف بالغموض.

متى؟ وأين؟ ومع من؟ وهل هنّ جميلات؟ وما الذي تجده فيهنّ ؟ وتفتقده فيّ ؟

- بعيني، أزني.

قالت وهي محبطة:

- أنا أتكلّم بجدّ. أعْني الزّنا الأكبر.

- استغفري الله يا هذه، متى أصبحتِ مُفتية توضّحين درجات الزّنا؟

- وهل من تحرّش بامرأة، أو لامسها، أو قبّلها رغما عنها، أو فكّر فيها بشبقٍ حتّى، يطبّق عليه نفس القانون على الّذي اغتصبها!؟

- خبّريني، ألا تحبّ بعض النّساء أن يُتَحرّش بهن؟ ألا يحاولن بعضهنّ إبداء زينتهن، ولو لغير بعولتهن، ويبالغن في تضخيم أعضاء من الجسد تثير الشّهوة الجنسية؟

- بلى؛ بعض العازبات، خوفَ حلول فصل العنوسة، وبعض المتزوجات ليتأكّدن إن كان ما زال بالجسد مرج ترعى فيه عين عابر سبيل.

- ألا تزني المرأة؟

- بلى، إذا دفعها الفقر إلى ذلك دفعا ، أو رغبة جنسية حادّة تعذّر إشباعها فقد تزني، ولأسباب أخرى إذا حضر الشّيطان، أو حتّى مع جنّي كما في ألف ليلة وليلة. ولكن هناك كذلك الحافظات ...

ساد صمت طويل ربّما كانت تتساءل لماذا كانت الزّاهية تزني، بينما طفَى على سطح ذاكرتك مشهد الفصل الأوّل والأخير من المسرحية الدّرامية لصفيّة. كلّما أخذتْ تلك الواقعة بمجمع تفكيرك

تساءلتَ إن كان لصفِيّة خلّ من قبل، وقد وجدتْ فيك من يعوّضه وهي في مأمن داخل بيتها. وكمن استفاق من غفوة قلتَ:

- أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم.
ضحكتْ وقالت:

- هل أصبح الشيطان ثالثنا ونزغك؟ أم أنّ جوادك كبا ووقْد غُلّك المؤجّج خبا ؟

زمَمْتَ شفتيك، كأنّك لا تريد أن تردّ على منطقها الّذي لا يستقيم إلاّ في ذهنها. التفتّ نحو المطبخ، فقالت إنها أحضرتْ كلّ ما تحتاجانه.

بعد العشاء، طلبت منك أن تعزف لها" بَعيد عنّك"، فقلتَ لها إنّ وتراً في العود قد تقطّع. ناولتَها القَدْر من المال الذي وفّرَته، ومثله من عندك. ودخلتَ غرفةَ نومك.

شعرتْ بذنب كبير بعدما أدركتْ أنّها حرّكت البرْكةَ الآسنة بداخلك، فعكّر طحلبُها سطح مزاجك الذي كان رائقا. لقد عزفتْ على الوتر الحسّاس حتّى انقطع، فأصبح العزف نشازاً. فهمتْ كما فهمتَ، أنّه سيمّر ماء كثير من تحت الجسر قبل أن يُصلحَ وتَر الرّوح؛ أمّا وتر الآلة، فيمكن تغييره للتّوّ.

تمدّدتَ فوق السرير، فطرقتِ الباب وطلبتْ منك أن تسامحها. تظاهرتَ بعدم الفهم وسألتها على ماذا. لم تجب، وسمعتها تبتعد. ابتسمتَ لمّا فكّرتَ في أن تقايضها بالغناء معك للأطفال لتسامحها. لكنّ ذلك بدا لك فكرة ماكرة من شيم الخبثاء، ولا يجب أن تستعملها كورقة ضغط.

مرّت شهور دون أن تزورك، وكان يغمرك ارتياح كبير لشعورك أنّك استطعتَ أن تُشعرها بأنّها بشَر يحيا، وأنّ لها دور في المجتمع، وليست عالة أو فُضالة يجب التّخلّص منها.

جلستَ إلى القصيدة فرأيتها كدالية نشرتْ جدائلها، لكن بلا عناقيد. قمت إلى العود، وبعد أن شددتَ أوتاره المرتخية، بدأتَ تدندن: " مرسول الحُبّ، فينْ مْشيتي، وفين غَبْتِ عْلينا." بعدما أنهيت الأغنية سحّت دمعتان من عينيك. هل بكيت لغيابها أم لنشوز القصيدة عنك؟ لقد حلحلت الأغنية دواخلك فأبكتك. فيها رؤيا رومانسية ثنائية تفيد في تعميق الإحساس بشعرية مضيئة وشظايا من عاطفة الشّاعر. المفردات تحيل على المعنى الحقيقي لقيمة النص؛ وقد استطاع الشّاعر بفضل الغناء والتّلحين الوصول إلى الشّارع لأنّه استطاع أن يصل إلى نفسه.

أحسستَ بضيق رغم أنّك تحبّ العزلة، فخرجتَ ووقفت تتأمل الشّارع. هبّت نسمة فشعرتَ ببرودة بقايا أدمعك على جفنيك وخدّيك. مسحتَ بحركة طفولية على وجهك بظاهر يدك، فشعرت بانتعاش مريح.

واجهات المتاجر والمقاهي باهتة يعلوها الغبار. المارّة يسيرون أو يتجوّلون في شارع بلا أضواء إشارات المرور ولا ممرّات الرّاجلين. السائقون يقودون بطريقة كأنّ الجادّة لم تصنع إلاّ لهم. أصحاب العربات يتوقّفون حيثما، ومتى أمرهم راكب بالتوقّف، غير عابئين بمن يسيرون معهم في الطريق. هناك في الشّمال الشرقي للمدينة يتصاعد دخان أسود كثيف يوزّعه معمل السكّر الشمندري بإنصاف

على كل السكّان كلّما اشتغل بالفحم الحجري. وفي الجنوب، أدخنة ملتهبة تحجب السّماء، من حريق يشبّ بين الفينة والأخرى في براريك السّوق الأسبوعي وما تحويه من بضائع مستعملة، وخرْدوات من أوروبّا.

أقفلتَ الباب وهِمتَ على وجهك تذرع الشّوارع والأزقّة. فجأة، سمعتَ صوتا مألوفا. انتبهتَ إلى جهة الصّوت واقتربتَ من مطعم امتلأتْ جنباته بالزّبائن، فلمحتَ رقيّة، تدعوك بإشارة من يدها إلى الاقتراب وهي تعتمر عصابة بيضاء مزركشة بخيوط ذهبيّة، ملفوفة كالطربوش، يتدلّى أحد أطرافها على صدرها. كانت تُشمّر عن ذراعيها، وترتدي بذلة خضراء، جمعتْ ذيلها الأمامي، وأدخلته في جيب وزرتها. ألقيتَ السّلام على الجميع، ورأى العاملون الاستبشار على وجه رقيّة فسلّموا عليك بحرارة. عانقتك وقالتْ:" أنسيتَ الوعد؟" أخجلك سؤالها بعدما التفتَ بعض الزبائن، فاستدركتْ:" ألم تَعدْني أنّك ستكون من بين زبائني المنتظمين؟"

أشارت إليك بالجلوس إلى مائدة وجلست بجانبك.

سمعتَ طرقات بملعقة على المائدة، وصاح أحدهم:" الحاجّة، إنّني مستعجل! " فصاحتْ:" مبارك، مراد.. هيّا يا شباب !" ابتسمتَ، وسألتها همساً لماذا لم تخبرك عن ذهابها إلى الحجّ. قالت وهي تضحك:" المال يا أستاذ، يبدّل من حال إلى حال. أستغفر الله وأتوب إليه.

أخذتْ تصفّق، وترحّب بالزّبائن، وتتكلّم بصوتها الدّافئ الذي كنتَ تودّ أن يتوجّه إلى عقول الصّغار، لا إلى بطون الكبار. تنهّدتْ ثمّ قالتْ:

- لمْ تعزّني في العبديّة..
- إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أوَ ماتتِ مريم؟ وما الذي أماتها؟

- أجلُها.. لقد تعاورتْها نوائبُ الدّهْرِ، وسطا الدُّعّارُ والفُجّارُ على ما تبقّى من روضة جَمالها، ودرسوا رسْم مَفاتنها، فلم يبق لها من مورد رزقٍ إلاّ ما تسمّيه صالونا. لم تطوّر العبدية مهاراتها، مع تقدّم التّكنولوجيا، وانتشار المتخصّصين في التّجميل، وبروز موضات جديدة، فأصبحت مزينة للبنات في أعياد ميلادهن، وللعرائس في البوادي. يقول المثل الفرنسي:" Celui qui n'avance pas, recule.". اضطُرتْ أخيراً لتلعب دور مُخْبِرة غيْر رسْمية، فغدت تَتقصّى خَبايا أسْرار المدينة، وقد امْتدّ نفوذُها حتّى ضواحيها. كلّ مَساء تُغرْبلُ دَرْدشاتها وتعْجنُ منْها أرغفة يتَعشّى بها بعض رجال السّلطة، والشّرطة. زادَ ذلك من هيْبَتِها و شُهرتها، فأضحتْ وسيطة بين النّاخبين والمنتخبين، وعنصرا خطيرا، ومؤثّراً حاسما في النتائج الانتخابية التي خرجتْ منْها بكوخٍ من الصّفيح بأبْعاد قبْر، في حيّ عشوائي.

ذهبتُ قبل أسبوعين لأزورها هي وأمها، فتحدّثنا كثيرا، وضحكنا أكثر. لكنّني عانقتها و بكيتُ بكاء مرّا عندما أخبرتني أنّها مصابة بداء سرطان الرّحم. كانت نظراتها باهتة، يجلّلها حزن كثيف. تساءلتْ في حيرة لمن ستترك أمّها إذا ما ذهب بها ذاك الدّاء العضال. خرجتْ لتشيّعني فطال عناقها لي وهي تنشجُ. وأنا أودّعها، وعدتها أنني سأكون دائما بجانبهما.

ما أن ابتعدت عنها بخطوات، حتّى سَمعْتُ صَرْخةً، و تَكْبيرا، وتهليلاً. التفتُّ مذعورة، فرأيتَ جَسَدَ العبدية مُمدّدا على الإسْفلتِ،

بعد أن صَدمَتْها عَربةٌ يَجُرّها حصانٌ جامحٌ كالوَقْتِ. هرعتُ إليها، وانحنيتُ عليها، وعانقتها، وأنا أصرخ لطلب النجدة. حاولت مساعدتها لتنهض، فرأيتُ جرحا غائرا بجبهتها، والدم يسيل من أذنيها. صعُبَ عليّ أن تبقى أمّها وحدها، فأسكنتها معي.

تأسّفتَ كثيراً وقمتَ لتودّعها، فمسحتْ بكمّها دمعتين، وقالت بصوت مخنوق:" نحن نحضّر كل الوجبات، فمرحبا بك في أيّ وقت." اتجهتَ نحو بديعة، ووضعت يدك في جيبك، فقالت وهي تبتسم:" خالص." أخرجت ورقة مالية ودسستها في جيب وِزْرتها وقلت: " بقشيش ليس إلاّ."

حزّ في نفسك مرأى بديعة لمّا تذكّرت كيف كان لقاؤكما أوّل مرّة يوم ذهبتَ تسأل عن رقيّة. أين تلك الخطوات بتبختر، وذلك الشّموخ، والجسد المفعم بالحيوية، وعزّة النفس؟ الزّمان كاسر وغادر. قلتَ لرقيّة وأنتَ تخرج:" اِعْتني بهذه الظّريفة، إنّها بضاعة لا تسلّمُ إلاّ للخواصّ." نظرتْ إليك وقد انشرح وجهها لكنّ بسمتها كانت مهزومة.

كلّما وفّرتْ رقيّة قدراً من المال، أتتْ لتخبّأه عندك. قالتْ ذات مرّة بعد أن تضاعف عدد زبائنها، وارتفع ربحها إنّها تحلم بأن تقتني جميع أدوات وأواني الطبخ لتصبح مموّنة للحفلات، والأعراس والمآتم، ولن تشغّل إلا الأرامل، والمطلّقات، والمنبوذات.

لم يعد يخجلك مجيئها، بعدما أصبحتْ معروفة في المدينة عند متذوقي وجباتها الشّهيّة. قد يظنّ بعضهم أنّك ربّ المطعم. لكن بعضهم لا ينسون؛ سيقولون:" كانتْ..."

زارتك ذات مساء وهي محّملة كالعادة ببعض ما تشتهيه، وقميصا وساعة يدويّة. مدّتهما لك وقالت وهي تضحك:" هذا من الحلال." شكرتها على كرمها الحاتمي، وسألتها عن سير عملها، فحمدت الله وشكرته.

يظنّ بعض من لا يعرفون رقيّة، أنّها وُلدت وفي فمها ملعقة من ذهب، أو أنّها ورثت ثروة عن والديها، أو عن شيخ ثري تزوّجها فقضى. أنتَ نفسك تُعجب من الثّروة التي راكمتها، والشهرة التي نالتها خلال سنوات قليلة، وتنسى، رغم معرفتك بها عن قرب، أنّ وراء ذلك مسيرة طويلة متعرّجة مليئة بالأشواك؛ في كلّ منعطف مُتربّصٌ، أوْ وَحشٌ آدميّ، أو أحبولة من أحابيل أشباهها، أو طعنة من الخلف من يد الزّمن الغادر.

قبل أن تغادر مطعمها، ذات صباح، أخبرتْك أنها ستذهب بعد شهر إلى الحجّ. ابتسمتَ وقلتَ لها:" سَتنالين اللّقب عن جدارةً واستحقاق." فقالت:" أتكلّمُ بصدق؛ هل أجد في خزانتك كتابًا عن مناسك الحج؟" حرّكتَ رأسك بالإيجاب، وأنت تفكّر بإعجاب في المرأة التي يساوي ثقلها ذهباً. عانقتك عناقاً حارّاً أذهل الزّبائن، فسالت دمعتان من عينيها، وقالت لك:" ادعُ معي، كما سأدعو معك هناك. ليتك ترافقني، سأدفع عنك كل مصاريف السّفر." غمغمْتَ:" لمن استطاع إليه سبيلا." وقبل أن تغادر المطعم، سألتها:

- هل سيُقفلُ المطعم أثناء غيابك؟
- لا، ستنوب عنّي خالتي الغالية.
- وهل أمّ المرحومة مريم ما تزال في صحّة جيّدة؟
- إنّها أقوى من فرَسٍ. حينما أريد أن أمازحها،

أشير إلى أحد الزّبائن وأقول لها إنّها أعجبته و يودّ الزواج بها، وإنّه سألني أين يذهب لطلب يَدها. تضحك كثيرا وتردّ عليّ:" وهل أفلحتِ أنت التي تصغريني سنّا، وتضاهيني جمالا، في الحصول على زوج؟"، فأجيبها:" لكلّ حنطة كيّالٌ." ذات مرّة قلت لها إنّي سأزوّجها برجل توفّى عن زوجته، فسألتني كم له من أطفال. لمّا استوعبت المزحة ضحكنا كثيرا.

أظنّ أنّ مثل هذه اللّحظات المنفلتة هي الّتي نشعر فيها بما يسمّى بالسعادة حيث تأتي عفويّة، بيد أنّا نادرة.

وأنت تعود، كنت تفكّر في حياة هذه المرأة العصامية، التي سقطت بين براثن الفحشاء والرّذيلة، واستطاعت أن تتحرّر، وتشقّ لنفسها طريقا نحو النجاح الاجتماعي، ولتحجز لنفسها، بفضل طموحها وإصرارها مساحة للتنفس في هذا الهواء الخانق. لم تكن ترى قطّ الانكسار في عينيها إلاّ عندما كانت تتوسّل إليك لكي تقترن بها. أدركتْ مبكّرا أن كلّ شخص يحاول التّقرّب منها ليس إلاّ ذئباً يريد عزلها عن القطيع والاستفراد بها، إلاّ أنت، ولذلك دامت صداقتكما. عندما بلغ السّيل الزُبى ذات يوم، وسُدّت عليها المنافذ، قالت لك واليأس يخنق روحها:" أظنّ أنّ حتّى خالقي تخلّى عنّي"؛ ولكي لا تترك اليأس يثبّطها عن حلمها تردّ عليها كالعادة:" إن في ذلك لحكمة."

لمّا عادت رقيّة من الحجّ، ذهبتَ ككلّ من يعرفونها، لتبارك لها حجّها المبرور، وزيارة قبر الرّسول. همستْ إليك أنّها ستزورك قريبا.

بهندامها الأبيض، بدت لك أجمل وأبهى ممّا كانت. وجه طافح بالبشر، وعينان تنمّان عن الرّضا عن النفس، وتفاؤل بلا حدود، كأنّها تطهّرتْ قلبا وقالبا.

عندما كانتْ تزورك من قبلُ، وكلّما اضطرّتْ إلى العودة إلى وكر بديعة، كنتَ ترى في عينيها يأسا بلا أبعاد. لم يكن فيهما دموع، بل ألم وسأم أغزر من الدموع. يخبو النّور في عينيّ المرأة التي عانت كثيرا، فتبدو نظراتها باردة، وباهتة كأرض جدباء، أو روضة تجمّدت، فذبلت زهورها، وجفّ عشبها، ونضبت منابعها. إذا ما لاح منهما بريق، فإنّهما لا تدعوانك إلى الاقتراب، بل تظلاّن ترقبانك من بعيد كإشارات إنذار. إن عينيّ المرأة التي قاست طويلا، تنظران إليك بتوجّس كالطّيور المتوحّشة، أو الظّباء التي سبق لها أن أفلتت من بين براثن لبؤة، فتكون متأهّبة للفرار، عند سماع أهيف حفحفة.

جلستْ، فبقيتَ واقفا طويلا متأمّلاً وقد استحسنْتَ ذوقها، وقلتَ في نفسك:" بيتٌ مثالي، لا ينقصه إلاّ الزّوج." قالتْ، وكأنّك كنت تفكّر بصوت مرتفع:

- فات الميعاد .. لم نعد نحتاج إليه.
- ألم يراودك أحد عن نفسك، أو تحرّش بك، أو عرض عليك الزّواج بعدما أصبحتِ ما أنت عليه؟

- كثيرون. ولكن ليسوا إلاّ حدّاداً سكّيراً، أو ميكانيكيا حشّاشاً، أو نجّاراً مفلسا يريدني أن أنتشله من ديونه، أو أرملا متقاعداً يطمع فيّ لأطعمه وأولادَه من الزّوجة الثانية. أنا لم أحبب في حياتي إلا واحداً. وأنت، ألم تحبب يوما؟ ألم تجرّب حظّك في الزواج، أم جرّبتَ وفشلتَ؟

فاجأك السؤال فحرّك الرّاكد من الأمواه التي كنت تظنّها قد تجمّدت:

- بلى، وما زلتُ. إنّي أحبّ كلّ النّاس إلاّ المنافقين.

- لا، بل أعني الحبّ الآخر.
كنتَ تعرف أكثر منها أنواع الحبّ وشِراكه، وعذاباته، وآهاته، وسطوته، والأرق والدّنف الثقيل الذي يسبّبه، فصمتّ طويلا ثمّ قلتَ:

- ما كلّفني إيّاه الحبّ، ما زلت أؤدّيه أقساطا أقساطا.

شعرتَ أنّك فتحت لها كوّة لتطلّ منها على سرّك المسيّج بعوسج الكتمان، وأسلاك الغموض، فصمتّ. تنهّدتْ، وحوقلتْ. ولتحرّضك على الحكي بطريقتها، عندما تسترجع ذكرياتها الأليمة وهي تضحك كأنّها ليست هي الّتي تجرّعت تلك الآلام والأوجاع، وأحيانا تنعتُ نفسها بالغباء والسّذاجة، قالتْ:

- وسكتتْ الحاجّة رقيّة عن الكلام غير المباح، ليحكي الأستاذ حتّى الصّباح.

ضحكتَ بصوتك الأنثوي وقلتَ:

- هذا الشهريار لا يحكي بل يكتب؛ في مجتمع ثرثار، حيث الكلّ يريد أن يتكلّم ولا أحد ينصت، فهو يكتفي بالملاحظة والكتابة.

تمدّدتَ فوق السّرير النّاعم، كان الفراش يعبق بِطيب المسك ممزوجة برائحة عطرٍ فاخر. جافى الكرى جفونَك، فلمْ تدرِ كيف انبثق من الذّاكرة المشوّشة شريط من مشاهد، حاولتَ مرارا طمسها، فحفرتَ لها في آخر بقعة مهجورة من ذاكرتك، ودفنتها وبلّطتَ فوقها الأرض بحصَبِ النسيان.

عند انتقالك إلى الثّانوي، رافقتك أمّك إلى المدينة واكترتْ لَك غرفة في السطح. أوصت عليك أصحاب البيت وقالت لهم إنها تخاف عليك من الانحراف.

كنت تكبرُ ابنتهما ضُحى بسنتين، ولكنّها كانت تتقرّب منّك وتحاول التّحدّث إليك.

حَذرٌ بدرجة مرَضيّة كأغلب البدوييّن، كنتَ تخشى سطوة أبيها قاسم الّذي كان متغطرسا، وعنيفا، فحاولت أن تترك بينك وبينها حيّزا من الاحترام.

تتمتّع الزوجة صفيّة بجمال فاتن، ولو أنّك لم تكن تطيل النّظر إليها، فقد كنت تشعر بسحرها. كانت تعاملك كأحد أبنائها. بين الفينة والأخرى تحمل إليك بعض الطّعام، والفواكه، وتطرح عليك في عجالة أسئلة تروم من ورائها معرفة أصلك وفصلك.

لضحى ملامح أمّها الجميلة، وقوامٌ قُدّ من مرمر؛ تفيض حيويّة ودعابة. تطلّ عليك كفجر ينيرُ زوايا خرائب روحك ألمعتمة.

لم تدر أيّة وقاحة، أو شعور جارفٍ، دفعك يوما، بعد أن أنجزتَ لها تمرينا، لتكتب في آخر الصّفحة بيتين للشّابّي:

" كلّما أبْصرتكِ عيناي تمشي*** بخطو موقّع كالنّشيد

خفقَ القلبُ للحياة، ورفّ الزّهرُ ***في حقل عمريَ المجرود.

أشرق مُحيّاها، وبحركة عفوية وضعتْ يَدها على صدْرك، فقرأتَ في عينيها أنّها تريد أن تسمع ما يقوله قلبك من خلال دقّاته. سألتك والإعجاب يشعّ من عينيها الواسعتين كحلمها:

- أأنت من كتب هذا؟

سبحتَ في بُحيرتي عينيها بعدما أحسست بدفء يترقرق منهما وقلت:

- لا، إنهما من :" صلوات في هيكل الحبّ"،

وهي قصيدة طويلة للشّاعر التّونسي أبي القام الشابّي. فتَنني هذه النصّ الرّومانسي، فأدركت أن القصيدة أحيانا تصبح طفلا، يُبكي ويُضحك، ويُحزن ويُفرحُ. حاولتُ ترجمتها، وقرأتُ الأبيات الأولى على أستاذة اللّغة الفرنسية، ورجوتُها أن تصحّح لي ما تجد فيها من أخطاء وركاكة، وتُبدي ملاحظاتها. هذه بعض أبياتها الأولى:

Tu es douce comme l'enfance, les rêves
Comme la mélodie, le nouveau matin
Comme le ciel rieur, la nuit éclairée par la lune
Comme les roses, le sourire du nouveau-né.

طلبتْ منّي الأستاذة إعادة القراءة، ثمّ ألحّتْ عليّ في إتمام التّرجمة. اعتذرتُ قائلا:.

- أما يقالُ إنّ التّرجمة خيانة؟

- ولو، حاولْ أن لا تترجم إلاّ النصوص الّتي يطول صداها بداخلك، وتدعوك إلى التّأمّل، والّتي تتمنّى لو أنّك كنتَ كاتبَها. كلّما كنتَ قريبا من روح الكاتب، قرّبته أكثر إلى المتلقي؛ لَأنْ تُضيف إلى لائحة قراءاته كتّابا من جنسيات أخرى، خير من أن تتركه يجهلهم.

كلّما زارتك ضحى رقمت في بعض أوراقها بيتا، أو بيتين من قصيدة الشّابّي. بدأتْ تشعر أنّك تخاطبها من خلال القصيدة، وكأنّك تبوح لها مجاهرة وبصدق عمّا يختلج في صدرك. أنت نفسك شعرت بأنّ القصيدة رومنسية تفيد في تعميق الإحساس، وتذوّق رونق الكلمة الشّعرية بكامل الحواس. بقدر ما تنمو هذه المناجاة وتستطيل، بقدر ما تكشف عن بلّور مرآة الشّاعر وصفائها.

ذات أحد، بعدما خرج قاسم إلى المقهى، وذهبتْ ضُحى في رحلة مع قسمهم، نادتك صفيّة من أسفل وطلبتك في خدمة. لمّا نزلت أمرتك أن تطوي زَرْبية وتحملها إلى السّطح. هناك طلبتْ منك أن تساعدها على تصبينها. خلعت حذائك، وشمّرت عن ساقيك، فقالت لك بلهجة آمرة لم تعهدها فيها من قبل:

- لا، اِنزع سروالك كي لا يتبلّل عندما نريد عصْر الزّرْبية، وحتّى قميصك.

سكتّ طويلا، ثمّ قلت لها بصوت خفيض إنّك بلا تُبّان.

نزلتْ تجري، وعادت وهي تحمل تبّانا يفيض عن ورَكَيك وفخذيك. دخلت الغرفة لتخلع سروالك، وأردت أن تقفل الباب، فأوقفته برجلها،

وصاحت عليك:" أسرع، فلديّ أشغال أخرى." استدرت جهة الحائط. كنت تلتفت لترى إن كانت تنظر إليك، فأخرجت ساقيك من جهة واحدة من التّبّان فسقطتَ. أخجلك ضحكُها، فقمت كفأر دائخٍ.

كانت تصبّ الماء والمنظّف، وأنت ترفُس الزّربية، وتقلّبها، فتَحُثّك على الرّفس بقوّة. طلبتْ منك أن تتوقّف، بعدما بدا لها أن الأوساخ زالتْ، أوْ رحمةً بك لأنّك كنتُ تلهثُ، وأصبح تنفّسك حشرجة.

أشارتْ إليك أن تتبعها، ونزلتْ. فقلت لها: "لا، لا أريد أجراً. يكفي ما تقدّمينه لي." صاحتْ بنبرة آمِرة يشوبها الانفعال، بعدما رأتك ترتدي ملابسك، وهي تطلّ عليك من أسفل السّلّم: " هل تفهم؟ اِنزلْ كما أنتَ." غمرك شعور بالتّقدير والاحترام لكرم وودّ تلك المرأة، بعدما ظننت أنّها تريد أن تعطيك ملابس أحسن من ثيابك.

أدخلتك الحمام، وأردْت أن تقفل الباب، فدخلتْ

وأقفلتْهُ. فتَحَت المضخّة، فغمرتك زخّاتُ ماء ساخن، وصبّتْ على شعرك غسولاً معطّرا، وبدأتْ تمرّر الصّابون على جسمك. أُصِبْت بفتور كفأر مخدّر بلدغة أفعى.

وهي تجفّف جسمك بفوطة كبيرة، التصقتْ بك، وأخذتْ تحْتكّ بك، فحاولتَ دفعها، لكنّها أحكمتْ على عنقك بذراعها، وطفقتْ تلثم فمك وعنقك بشراهة متعطّشة. لمّا لم تجد منّك أيّ تجاوب، نظرتْ إليك بعينين زائغتين، وشفتاها ترتعشان واللّعاب يسيل منهما، وأشارتْ إليك أن تصعد.

لحقتْ بك، وكانت في قميص شفّاف. ضمّتك وقد دوّخك عطرها القويّ. مالت عليك بثقلها لتطرحك أرضا، فبقيتَ واقفاً كشجرة ميّتة.

كأنّ بينك وبينها جدار من الإسمنت المسلّح بالأخلاق، والمعتقدات، والعادات. حاولتْ إلهابَ نفسيك الظّمِئة إلى الحنان بِسوْرة الشبق المؤجِّج شهوتها. بعد لحظاتٍ تساقطتَ كثمرة ناضجة عندما يحلحل الغصنَ النّسيمُ، وما كنت لتسقَط لو لم تجرفْ رغبتها الهادرة حواسّك الهشيمة. وقفتْ، فبقيتَ منشورا، كشجرة استأصلها منشار كهربائي؛ مغمضَ العينين تتهجّى حواسّك الأميّة أوّل حروف اللّذّة المحرّمة، سمعتها تقول وهي تخرج:" سامحني، لقد أغواني الشّيطان."

استقمت، وتناولت ملابسك، فرأيتها تلتقي ضحى عند باب السّلّم. ذُهلت، وبُهتَت الأمّ، وقالتْ لك:" أنشرها بعد قليل." ثمّ لِضحى:" كنّا نصبّن الزّربية."

نزلت البنتُ تجري، وتبعتها الأمُّ. أصبت بالشّلل عندما شعرت كأنّ مصباحا قويّا كشف عنّك عاريا أمام الملإ.

هجرتك البنتُ، أمّا الأمّ، فنادراً ما كنت تراها إلاّ حين تصعد لنشر الغسيل. لا تلتفتُ إليك ولا تكلّمك، كأنّك ما كنت هناك.

باتت تُؤرّقك عدّة أسئلة كلّ أجوبتها محتملة: لماذا لم تذهب ضُحى في الرّحلة المقرّرة؟ هل أُجّلتْ أم وقع عطبٌ بالحافلة؟ هل افتعلت المشاركة في الرّحلة لتضبطكما متلبّسين بعدما فهمت من حركات أمّها ونظراتها إليك ما لم تفهمه أنت؟

عدت من الثّانوية يوما، فوجدت ضُحى قد أدخلت من تحت باب غرفتك قرصاً مضغوطا، على غلافه صورة لأم كلثوم في قصيدة: (أنت فين، والحبّ فين؟) أخذت تدندن. كنت تحفظ الأغنية عن ظهر

قلب، ولكنّك لم تتجنّ على الحبّ أبداً. لم تخن الودادَ ولا بِعْت ودّها، ولا حُبّها، ولا قلبَها. لولا حماقة صفية لكنت ملاكا.

بعدما نسيت الخوف أو كنت تحاول ذلك، أصبحت تتحيّن فرصة لقائها بعيدا عن المنزل. وهي تعود ذات زوال من الفُرن، اعترضت طريقها وطلبت منها أن تسمع الحقيقة التي لا تعرفها. لكَزتْك باللّوح في خصرك، وقالتْ دون أن تلتفتَ إليك: " أيّة حقيقة؟ (وليس يصحّ في الأذهان شيءٌ ***إذا احتاج النهار إلى دليل.) وقفت بعدما أفحمتْك حكمة المتنبّي. لكنّ عزّ عليك، أن تذهبَ دون أن تقنعها بالحقيقة الحقّة. تبعتها تجري، ووضعت يدك على كتفها، فلم تلتفت وصرختْ فيك أن تتركها لحالها. انتبه إليكما بعض شبّان الحيّ فهرعوا إليكما. تابعتْ طريقها دون أن تلتفتَ، بينما انهالت عليك اللّكمات والركلات من كل يد ورجل.

قرّرت أن تبقى في الخارج حتّى يجنّ اللّيل؛ حتّى إذا ما قبض عليك قاسم لم يكن هناك متفرّجون كثيرون مثل النّهار.

صعدت ليلا، بخُطى قطّ محترِس. ألقيْت نظرة خاطفة على استعمال الزّمان، وأطفأت الضّوء، ثمّ خَلدت إلى النّوم بعدما حمدت الله على أن قاسم لم يصعد إليك. وأنت تتحسّس جراحك، سمعت وقع خطوات ثقيلة تقترب، وقاسم يسْعل.

دون أن يتكلّم، ركلك بقوّة على ظهرك، فانقلبت. ركلات أخرى متتالية على البطن وبين الفخذين، فأردت أن تصرخ، ولكن بمن تستنجد؟ بأمّك البعيدة، أم بوالدك الذي لو التقيتما في الشارع لم تتعرفا على بعضكما؟ كنت تئن كجروٍ جريح، فقال لك:

- اِسمع يا ولد الزّنا، يكفي ما تلقّيتَه من ضرب وإهانة، ولكن إذا طلعتْ شمس الغد وأنت هنا، ستندم، ستندم، ستندم.

استيقظتَ مُتثاقلا كمن كان يسبح في ضفّة فأصبح في أخرى. لم تكن لك شهيّة، فخرجت لتُحَتْحِت ما تراكم على جسدك المنهك من غبار الخُمول.

لم تشعر كيف قاد الحنين قدميك إلى الزّقاق القديم، حيث الوكر الذي جمعكما طويلا، والذي كانت رقيّة تعتبره محطة استجمام لروحها الجريحة والمكسورة الجناحين، ولجسمها المنْكوشِ بمحاريث النّزوات المكبوتة، حتى عوّدتك على تقبّلها. ابتسمتَ وقلت في نفسك: العادة. العادة هي الّتي كانت تقود درّاجتك النّاريّة من البيت إلى المدرسة، ذهاباً وإياباً، وأنت تطارد بيتا شعريا مشاكساً، أو صورة لم تتضح ألوانها، أو تغنّي، أو تفكّر في وسيلة لتتخلّص من رقيّة (زمان)، دون أن تنتبه إلى الطريق. العادة هي التي كانت تجتاح رقيّة، فتسوقها كجارح يتقصّى الطّريدة بحواسّ متحفّزة.

عدت إلى المطعم، فلمّا ولجته بدا لك شبه خال من الزّبائن. طلبتَ قهوة، فسألتك رقيّة إن كنت تريد أن تأكل فلم تُجب. أحيانا يضع عليك أحد سؤالا تشمّ من رائحته أنّه يريدك أن تُجيب بلا، ولكنّك لا تردّ. ولكي لا تحرجه تتركه يتصرّف بتلقائية. يقولون:" السّكوت من علامات الرّضا." أبداً، فالسّكوتُ يكون تارة قبولا، وتارة رفضا، وكرّة أخرى تردّدا وحيرة، وهي الّتي تشْكمك دائما.

انتبهتَ إلى مراد يضع أمامك طبق من الحبّار والجمبري، فالتفتَّ إلى رقيّة، وكانت تنظر إليك لترى ردّ فعلكَ، فأشرتَ إليها أن تقترب.

انْتحتْ ووضعتْ أذنها قرب فمك، فهمستَ إليها:" أنا لا أعرف كيف يُؤكل هذا العجب.." ضحكتْ وقالت:" وهذا أقلّ ما يمكن أن أقدّمه لك." ربّتتْ على كتفك وقالت بصوت عال: " أنت غالٍ. أنت أخ لم تلده لي الزّاهية."

بعدما انتهين، كانت منهمكة في تحضير ما يستلذه الزّبائن، فاستأذنتها في الخروج.

في المساء، عُدتَ إلى بيتها متأخّرا، فوجدتها قد هيّأتْ لك متّكأً وثيراً، والمكان يعبق بالبخور المكيّة، وعلى الخوان ما لذّ وطاب مما يشتهيه ذوو النّهم، ولو أنّها تعرف أنّك غير أكول.

أخرجتَ دفترا من حقيبتك، وسألتها إن كانت تودّ أن تسمع قصيدة أم تقرأها بنفسها. لم تسكتْ كما تفعل أنت لتترك لك الخيار، فقالت:" اِقرأ."

عندما انتهيتَ، كانت تبكي، فحضنتكَ، وبقيتْ تنظر إليك كطفلة أضاعها أبوها طويلا، وقد عثرتْ عليه أخيرا بعدما كبرتْ وتحاول أن تسترجع في ملامحه طفولتها.

أخذت القصيدة وأخذت تقرؤها كأنّها أمام متلقّين:

" أَمْنْ سُلافِ الشُّجونِ كأْسُ بَلْواها**
أَمْ مِنْ دِنانِ الأسى أَوْجاعُ ذِكْراها
سَجْواءُ جَهْشَتُها الْحَرّى إذا انْتَحَبَتْ **
ساحَ البُكاءُ نَجيعاً من حَنايَاها
أرْخَتْ هَديلاً مُبَلّلاً بِعَبْرَتِها **

فاعْشَوْشَبَ الْحُزْنُ في قَلْبي لِمَبْكاها
الفِكْرُ مُنْكَدِرٌ، و الرّوحُ نـازِفَةٌ **
و القلبُ مِبْخَرَةٌ يَضوعُ رَيّاها
منْ قُنَّةِ الضَيْمِ أقْبَلَتْ تُطارِحُني**
كاساتِ حَيْرَتِها و اللّيْلُ يَغْشاها
قالتْ وقَدْ مَدَقَ الديجورُ نَأْمَتَها**
بحَسْرَةٍ حَرّكَتْ في الرّوحِ أَمْواها:
ما الحُبّ إنّ لمْ يكُنْ لكلّ كَائنةٍ **
أحْضانَ جارِيَةٍ والأمْنُ مَرْساها؟ "
والحُبُّ كأْسٌ بِحَجْمِ الوُجْدِ مُتْرَعَةٌ **
يَمْشي عَلى ذاتِه مَنْ عاش يُسْقاها."
قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أنّها بِلا شَجَنِ**
خَلِيَّةَ الْقَلْبِ والبُزاةَ تهواها
حَتّى شَرِبْتُ الذي ما كُنْتُ أَشْرَبُهُ**
شَجاً تَغَلْغَلَ في روحي فَأشْقاها
تَحَرَّرَ الْحَرْفُ تاركاً بِفَخِّ فَمي**
أسىً و قَدْ عانَقَتْ نَجْوايَ أُذْناها
فَقُلْتُ أمْ لَمْ أَقُلْ لكنّها الْتَقَفَتْ **
ما نَزَّ منْ كَبِدي المُدْمى فأضْناها:
"يا جارَةَ الْبَوْحِ ما جُرْحي بِمُنْدَمِلٍ**
هلاّ صدَدْتِ شَجونا كدتُ أنْساها.."

قالت:"ما أروعه من كلام ! وما عنوانها؟" قلت:" الورقاء" ضحكتْ وما تزال في العينين المشعّتين فرحًا بقايا دموع،

وسألتك:"ولم لا يكون الهتماء؟" فقلت:"فليكنْ، إكراما لصبر رقيّة، ومعاناتها، وكفاحها الّذي كلّل بالنّجاح."

تنهّدتْ ودفعتْ إليك بأطباق المكسّرات، فغمغمتَ:" وأين هي الطّواحين؟" ضحكتْ وهي تصبّ الشاي، وقالتْ لكَ:

- لم تبق لك أضراس؟ دعني أطحن لك أنا ما تشتهيه، وأمْضغه حتّى يلين، فأُلْقمك إيّاه كما تفعل الأمّ مع رضيعها. أتعافُ لقمةً من فمي؟ لطالما مصّ المكبوتون شفتيّ حتّى تحلّب ريقي المَمْذوق بالخمر، وبقايا الأكل العالقة بأسناني التي لم أغسلها، وظنّوا أنّه رُضاب.

دَنْدنتَ:

- "أطفئْ لظى القلب، بشهْد الرّضاب".. قبل الرّحيل أريد أن أسمع صوتك الذي اشتقتُ إليه.

- وهل يحلّ لحاجّة أن تغنّي؟
- أنا استثناء كما قلتِ لي ذات يوم مع الخمر.
- سأغنّي حسيبك للزّمن؛ وأنتَ؟ ما هي الأغنية التي تفضّل أن تودّعني بها؟

- " قطار الحياة" لمحمد الغربي، وغناء عبد الهادي بالخياط.

- وما الذي أعجبك فيها؟
- الكلمات، الموضوع. إنني من عشّاق أغاني أم

كلثوم، وأحفظ الكثير منها منذ صغري، وخصوصا قصائد شعراء اللّغة العربية الفصحى، ولكنّني أعني الغاية مِن النّصّ، والأقرب إلى الرّوح. عندما أسمع أغنية قطار الحياة، أشعر بحقّ أنّها تخلخل فيّ كرمة الإنسانيّة حتّى الجُذور، وتوقظ الراقد من الذّكريات ذات الصور الغامضة. يبدو لي أن محمد الغربي، كاتب "قطار الحياة" أكثر رومانسية، وإنسانيّة من عبد الوهاب محمد، كاتب "حَسيبك للزّمن." فالنّصّ الأوّل تنهيدة تسامُح تسِحّ من قلب مكلوم، لكنّه يفيض سماحة، وعفّة وتصالحاً. لقد عانى المحبّ ما عاناه من كبرياء حبيبه، وجفائه، وهجره، وقسوته، بيْد أنه ختَم القصيدة مصرّحا: وباقي تنْبغيك:(و ما زلت أحبّك)، رغم أنّ المحبوب قد خذلته الأيّام، وفقد رونقه، وذبل جماله.

بينما نجد في النّصّ الثّاني زفرة من قلب تجرّع هو كذلك مرارة البعد، والهجر، والإهمال، ولكنه يتوعّد محبوبه بالانتقام؛ وسوف لن يرحمه يوم تدور عليه الدّوائر. هذا حسب فهمي، ينمّ عن نفس حقودة، انتقامية سادية، تتلذذ بعذاب الآخر؛ وهذا ليس من شيم المحبّين الأصفياء، حيث يقول:" إشكي مشْ حَسأل عَليكْ/ إبك مُشْ حارْحَمْ عِينيك / ... دارت الأيام عليك.

- أُعجِبتُ برصدك لهذه المفارقة، ولكنّني أظن

أن ذلك ليس حقدا أو توعّدا بالانتقام، وإنّما تهديد مُفتعل وتذكير لعلّ المحبوب يخشى من تقلّب الدّهر ونوائبه، ويعتبر فيعود إلى حبيبه.

- لا يهمّ، سنغنّي معاً، فأيّها تختارين؟
- كنتُ أمزح، لقد طلّقتُ الغناء. سأحاول أن

أستغلّ ما بقي من رنّة في أوتاري الصّوتية لأجوّد القرآن الكريم. أمّا الآن فأنا أعمل بالقولة العامّية:" إذا شبعتْ الكرشْ، تقول للرّأس

غنْ." أملأُ البطونَ، وأتركُ الرؤوسَ تغنّي ما يروق لها، أو ترقص حتّى.

"La panse fait la danse."، يقول المثل الفرنسي.

قامتْ وأشارت إلى غرفة النوم وقالت:"تصبح على قصيدة." فقلت:"وأية قصيدة أحسن من وجهك الوميق، وصوتك الرّقيق، وقدّك الممشوق، وفرعك المفروق؟" التفتت إليك بخفّة واندهاش لأنّها لأوّل مرّة تسمع منك إطراءً بهذا الأسلوب. وقفتْ تنظر لعلّك تضيف شيئا آخر، ولمّا لزمتَ الصّمت ضحكت ثم قالت:"هل حضر الشّيطان بعد حين من الدّهر وفي بيت الحاجّة؟"

ابتسمتَ ودخلت الغرفة دون أن تردّ.

لقد فهمتْ كما فهمتَ أنّ ما كان بينكما يجب أن يبقى مُجرّد ذكرى مُحنّطة بوَرْد الودّ وريْحان الإنْسانية، هذه الكلمة التي رغم معناها الفضفاض، فإنّها لا تتّسع لكل إنسان. حبّ الإنسان للإنسان وعلى الرسول السلام. ربّما كان الّذي عشتماهُ إحْدى دَرجات الحُبّ السّامي. قديما قال جبران في المواكب:
"والحبّ إن قادتِ الأجسامُ موكبَهُ **
إلى فراشٍ من الأغْراضِ يَنْتحِرُ."
مرّت سَنة، ورغم انقضاء العطلة الصّيفية لم تزرها، فاتصلت بك على الهاتف، وتركتك تسمع أغنية: آش بيك دارتْ الاقْدار.." شكرتها ودمعت عيناك، لكنّك ضحكتَ، لكي لا تُشعرها بحزنك، وقلت لها:" سنزوركم عندما يُزْهر الفول، إن شاء الله."